الدكتور خوف ضيف

البطول في الشعر العربي

الطبعة الثانية

دار المعارف
الناشر: دار المعارف - 1119 كورنيش النيل - القاهرة. م. ع.
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من الموضوعات التي طالما تغنى بها شعراؤنا على مر الزمن بطلة الآباء والأجداد في معاركهم مع الأعداء، وما سقط من شرها على ألسنتهم وألسنت الشعراء. وقد عدت أذواقهم مصدراً في الزمن حتى العصر الجاهلي، فرأيت الروافد إلى صبّت في نهر بطولتنا العظيم، وهي روافد متعددة منها الحري الذي يقوم على الاستسلام في القتال، ومنها النفسي الذي يقوم على احتفال الشهداء والهام والحمز والأئمة والعزة، ومنها الخلقى الذي يقوم على صيانة الشرف وعلى الكرم والرفوق بالمعهد وحماية الجار. ونذكر تعاونت من قديم بطوله السيف مع بطوله النفس والخلق والطموح إلى المثل الرفيعة من مثل الإباء والأئمة والشعر بالعزة والكرامة والنجدة وإغاثة المجهولين وإطعام الجائعين.

ثم كان الإسلام فذاكى هذه البطولة بمعانها الثلاثة، وأمدها بروحانية مظلمة، جعلها تزداد تلطية واشعالا. وخرج العرب من جزرهم يحملون في يد مشاعل دينهم الحنف، وفي اليد الثانية سيوفهم ومن تحتهم خيولهم تصل ملوحة بأذرافها، وعزمتهم تطوى له المساوات المغرقة في البحر طويلًا، يريدون أن ينشروا الإسلام في أطراف الأرض، مرخصين مهجهم وأراهم في سبيل نشره. وتقسم جموعهم العالم.
قسم يتجه تلقى فارس، وقسم يتجه تلقى الشام، ثم يتجه قسم تلقى مصر، وتندحر جيش الروم والفرس. ويصبح العالم ملك أبيديم يثبتون فيه ويهبون. ويتبعون الروم إلى البحر، ويصبح فرسان الصحراء فرسان الداماء، ويمخر أسطول البحر المتوسط ویرتعد منه فرائض الأعداء.

ويمتد السيل الكاسح شرقًا حتى أواست الهند وأبواب الصين، ويمتد غربًا حتى مشارف البرانس، ودين للعرب الوراق في المشارق والمغرب، تدين لهجاهم وسالتهم وطلبهم الخارقة. ويحنى الروم منهم بحائط آسيا الصغرى وقراهم تحت الفزع والرعاب، وأبطال العرب من مثل سيف الدولة يخرجونهم الغصص ويفكون بهم في الجروح فتكاً ذريعاً. ويزن الصليبين في الشام والموصل، وتعقفهم أبدًا لا تكاد تحصى، ويظرنان نظرةً تائلاً أنهم سيقيمون إلى الأبد، وينبزهم وتأمل إذ يهض لم نور الدين وصلاح الدين وبيبرس وأبنادهم من الأبطال العظام فيظمونهم حظماً، ويستحيل الشام بركة من دمائهم، ويعود بقايام مملحة بالخري والعار. وسعان ما يتبهم التيار مهزمين محررين.

ويسقط العرب العصر الحديث والدولة فيانية توشك أن تنهار فتستصرخها وينجذبها في بعض حروبه مع الدول البلقانية وفي كريت. وتقضم الدول الاستعمارية ديارنا، ويتحكم في كل دار معركة من معارك التحرير، يغوص النضال فيها الشعوب. وفي مقدمتهم أبطال يزولون مستوردين زالاء شديداً، ومايزالون يهزلون بهم ضربات قاصمة.
حتى يستسلموا خانعين، وترد ديارنا حريةها واستقلالها. غير أن خيبتهم أداهم إلى أن يبقى من ورائهم إسرائيل لم تكن لم نقطة ارتكاز، وحتى تكون إسفيتاً يفصل بين البلاد العربية فلا تتم لها وحدة، وليحظموا عن طريقها فدراتها الاقتصادية كلما رأوها تخلى على قدميها.
ولن يفت في عضدنا ما حدث في حرب يومنا، ولن يفقدنا ثقتنا بأنفسنا، بل إنه سيستعيد من عزائنا لنسترد كرامتنا وشرفنا الحربي، وتنقذ بقعة غالية مقدسة من وطننا اغتصبتها ظلماً وعدواناً عصابات باقيه. ومن أكبر الدلائل على أن هذا الأمر المعقود سيتحقق فقرب اتباع الفدائيين الفلسطينيين للأخلاص بالتل، ثار الملبوسين في دير ياسين وكفر قاسم، والخبوعين بالمثات في سجن التعليب، واللاجئين المشردين الذين نُهبوا بصورة وحشية أراضيهم وبيوتهم وموارهم وكرومهم، ولم يبق للمؤثر الصخور. ولا يجب للذباق من أن تنهزم، ولن يذهب ليهود من أن تنصرف، ولا يجب للظلمادمي من أن ينخر، ولا يجب للصباح المضيء من أن يربك وتم أنواره.
القاهرة في أول يومه سنة 1970 م.
شرق ضيف
معنى البطولة

البطولة في اللغة الغليظة على الأقران، وهي غلب يرتفع بها البطل.

عندن حوله من الناس المعنيين ارتفاعاً يملأ نفوسهم له إجلالاً وإكباراً.

وقدماً كان البطل في القبيلة وفي عهود الحياة الأولى للأمم بعد شخصاً مقدساً، بل لقد كانوا يظلون أحياناً من سلالة الله، وكأنه حبة

تهبها لهم، حتى لا يقعوا فرصة لم نسائمهم، حتى لا يسقطوا في مهاوى

لا قرار لها من الاضمحلال والفتنة. وعلى نحو ما كانوا يقفون أمام

خوارق الطبيعة مشدوهين حائرين شاعرين كأنا تخطئها. هالة سحرية.

كانوا يقفون أمام البطل مذهولين كأنا يسير في طواياه فوق خفية.

وفي خوارق لا تخف عند نجاتهم من القتل بل تمتد إلى نجاتهم معه نباج

جعلهم يشعون بقوة أنه هو الذي يبيهم الحياة. ومن أجل ذلك عدوه

أحياناً، وخاصة في عهود الإنسانية الأولى، حتى يطلق على بعض فتراتها

فترة عبادة الأبطال، حين كانوا يتراءون من حروف زمرأ لقوى خفية

غريبة مجهولة، أو عبارة أخرى رمزًا لأشياء إلهية مقدسة، بل كأننا

اللهة هي إلى أنجبهم خماية من حروف بما يأتون من معجزات القوة

والشجاعة، وهي معجزات دفعت الناس إلى عبادتهم أحياناً كأنهم

حَمَّل الله بيدهم حياتهم وكل ما يحفظها عليهم من أسباب الرزق والبقاء.
ويتبين هذا العصر في تاريخ اليونان القديم، حين مضت تبشير
هذا التاريخ تتجلج في أفق حياتهم المظلم الكثيف منذ القرن الخامس
عشر قبل الميلاد حتى القرن التاسع. وفي هذا الزمن السحيق كان
يحكمهم ملوك آمنوا بأنهم من سلالة الآلهة، مما امتازوا به من بطولة
نادرة ومن بأس عات شديد. وقد نسجوا حولهم كثيراً من الأساطير
المغرة في الخيال، غير فارقين بينهم وبين آلهتهم في صور الحياة والأحداث
وما يمزله على الناس من صواعق الموت الذي لا يبقي ولا يدبر
بل لقد كانوا يخاطرون أنهم لم يعثّلونا، وهم اختلافاً يجعل لم نفس النوازع البشرية وكأنما
طبعهم هي نفس طبيعتهم الإنسانية بكل عواطفها في الحب وغير الحب
و بكل أهواتها و ضروب سلوكها و كل أبحاذا و صنوف خصومتها.
وبذلك وضعوا الآلهة والأبطال في مرتبة واحدة، سواء في السلم أو في
الحرب والقتال، إذ كانوا يقتلون معهم، و تارة يملؤهم بالنصر،
وتارة يخلون عبهم فيدروع الموت أو يذوقون الذل و الهوان.

وأخذت تتكون في هذه الفترة المتعمة في القدم أساطير كثيرة
في عشبة اليونان عن أبطالهم وألهتهم، ثم يبحث أن يزيل في الأناشيد شعرية
وأخذت هذه الأناشيد - كما أخذت هذه الأساطير - تتضخ، ولا
نصل إلى القرن العاشر قبل الميلاد حتى نجد هومر في بسوي من تصدية القصص في الطبيلتين "الألياذة" و"الأوديسا"، وتكنّي
بالوقوف قليلاً عند أولها لتبني لنا شخصية هذا الشعر القصصي
القديم، وكيف كان يقوم على تصوير المغامرات بعض الأبطال اليونانيين
و ما يتعلق ب تلك المغامرات من أحداث الحروب ومن الأساطير.
القصيدة. تتألف من نحو خمسة عشر آية من الأبيات، وهي تصف أحداث الأسابيع الأخيرة من حرب اليونان مع أهل طروادة في آسيا الصغرى لمدة عشر سنوات كانت الحرب فيها سجالاً بين الفريقين، وتقول أنAsturian إن بارس بن بريام ملك طروادة حكم للإلهة أفروديت، وَبِلَّأَنَّ أَجْرًا، وَأَثَّانِيَّةً، وَجَعَلْنَاهَا غَيْظًا مِّنَهُ. فإِنْ رَأَى أَفِرُودِيْتُ إِنَّهُ تَجْزَى جَزَاءً حَسَنًا فَوَعَّاهُ الافتران بِهِلِلنْ فَانْثَيَةِ زُوجَةٍ مِّنْيَلَاوُسَ مَلِكَ إِسْبُرَةٍ. وَأَجَبَ بَارِسُ إِلَى الْيُوسُنَ وَزَلَّ ضِلْفًا عَلَى المَلِكِ، فَلَبِثَ أَنَّ أَجْرًا، وَجَزَاءً بَالْفَرْارِ مَعِهِ إِلَى بُلْدَاهِ، وَفَرَتْ رَاضِيَةً. وَبِدَأَتْ خَيْرَةً الْحَبْرُ، إِذْ اسْتَخْرَجَ الْمَلِكُ أَحْرَاحَ أَجَا مِنْهُنَّ، وَأَبْطَالِ الْيُوسُنَ مِنْ أَمْثَالٍ أَخِيلٍ، فَلَبِثَ غَضَبَيَّ، وَلِبَثَ جُمُوعَ كَثِيرَةً عَلَى الْبَحْرِ فَقَدْفِهَا قَافِلَهَا أَجَا مِنْهُنَّ يَحْلُ لَوَاتِ قُوَّةٍ، وَمَا إِنَّ عَلَمَ الْطَّرَوَادُونَ حُكْمً اسْتَنطِدُوا بَأَمَرَاءَ آسِيَ الصَّغِيرَ وَجَاهَيْهِ مِنْ كُلّ حُبُّ يَتَسَلَّلُنَّ، وَأَجَمَعُ رَأِيَهُمُ عَلَى أَنْ يَكُنَّ قَائِدَهُمْ إِنَّ بَريَا مَّالِكٌ، وَحِكْمَةُ الْبَطلِ الْمَضْرُوُّ زُوجُ أَنْدَرِمَاكَ. وَالتَّقَنَّ الْفَانْثَيَةَ وَالْقَسَمَتْ الآلَةَ بَيْنَ المَعْلِمِيْنَ الحَبَرَيْنَ، وَكَانَ طَبْيَّاً أَنْ تَنْصَرَ الْيُوسُنَ، وَأَنْ تَنْصَرَ الْطَّرَوَادُونَ أَفِرُودِيْتُ، وَوَقَفَ زُرِىِّسُ كَبِيرُ الآلَةَ عَلَى الْحَيَاةِ. وَوُلِدَتْ الْحَبَرَةُ مَشْعَلَةً بَعْشٍ عَشَرِ، وَكَانَتْ الْحَبَرَةُ مِثْلَمًا، فَمَن يَحْتَلِذُ خَلَافَ بَيْنَ أَجَا مِنْهُنَّ وَأَخِيلٍ، وَمَنْ هَتَا قَصَةُ الإِلَيَاذَةِ، إِذْ اتَّلَحَ هِمْمُرُوسُ نِمَّ خِلَافِ الْأَصِلَ الَّذِي تَقْرِعَتْ عَنْهُ أَحْدَاثَ الْأَسَابِيعِ الَّدِينَةِ، فَقَدْ غَضَبَ أَخِيلٍ مِّنْ أَجَا مِنْهُنَّ وَبَعْضًا قَبْلَ غُيظًا وَمُرْجَعَةً لَّاغْتِصَابِهِ فَتَاتِهِ بِ" بَرِيْسِ" إِلَى سَبَاهَا فِ
بعض معاركه، وقبل رجاعًا إلى سفينته، واعتزل الحرب وقومه، وكانت أمه ثيسيس من عرائس البحر، فجاءته تسألها ما الخبر، فروى لها صنيع أجا ممكن معه، وطلب إليها أن تصب عليه غزبها، وأن تستعين عليه بالله، وتجار إلى زيس. ويخدم القتال بين اليونان والترودوس وينكل بهم الأخرون، ويقتنون نفراً من أبطال العظام، يقتلهم هكذا، وفي مقدمتهم باتروكلوس صديق أخيل وصوئله، ويعزز اليونانيون إلى أخيل، وبرد إليه أجا ممتن فتته، وتأتيه أمه بدرع نسجته له بعض الأفان، وينزل حومة القتال، ويلقي بكتور، فتدور عليه الدوائر، بينما زوجه وأبراه يعلنان بالنشيد والدموع الغزار ويسترد الترودوس جثة بطلهم لقاء فدية كبيرة لأخيل، ويدعونه بحجة رهبة يخف بها النجيب والعويل، وبذلك تنرى الإلياذة.

ووذكر أن البطولة في الإلياذة بطلة أسطورية تصل بأبطال وآلهة أسطوريين، وليس بما من العصور العربية القديمة شيء من هذه البطولة التي تتشابك فيها الوصائج بين الأبطال والآلهة، وكما قد اجتاز العرب في أقدم عصورهم التاريخية - وأقصد العصر الجاهل - هذا الدور الفظي، الذي يشترك فيه الأبطال والآلهة في أحداث الحرب. ولعل هذا هو السبب الحقيقي في أن العرب لم ينظموا القصائد القصصية الطويلة، وبعبارة أخرى لم يعرفوا الشعر القصصي الذي تطول قصائده طولاً مسراً ويشبع فيها التسلسل القصصي الدقيق، وكناه بإزاء قصة كاملة غير أنها نُظمت شارعاً. ولابد أن نشير هنا إلى أن اليونان سجلوا البطولة في صورة شعرية أخرى هي صورة الشعر التمثيلي الذي
يكتب للمسرح والذي يصور فيه مآسي الأبطال، وقد درس أورسطو
المأساة دراسة تقدية عميقة ملاحظة أنه لكي تحدث مأساة البطل
لا بد أن يكون به ضرب من ضروب التقصيب إيجاه مأساته، لأنها لا تبحث
عليه من السبب بل تنزل به تزولاً طبيعيًا، وكأنها مشروكة الذي يفضى
إلى دماره. ولم يعرف العرب هذا النوع من البطولة المسرحية، لسبب
طبيعي، هو أنهم لم يعرفوا قديماً المسرح وما يعتمد عليه من خواص
بين الممثلين وقصة تلاقاح في الحركة والمشاهدة والنظر المحتملة.
ومع ذلك أن العرب لم يعرفوا قديماً البطولة المسرحية ولا البطولة
الأسطورية، وإنما عرفوا البطولة الواقعية، ببطولة يرفع فيها صاحبها
عن الأشخاص العاديين من حوله بقوة وساعته وإقدامه وجرأته.
وتغلبه على أقرانه، وهو منهم، من ذات أجناسهم من سلالة الآلهة،
وأنصاف الآلهة، ببشر سوي لا يعلو على الحدود البشرية الإنسانية،
وبطولته لذلك تتفجر من وجود الإنسان البشري لا من يرابع إلهية
أو سحرية غبية، بطولة إنسانية لا تشجع بشري خفية، بل تستمد
من الواقع وحاققه لأن الأحلام كخوارج، وهي بطولة تستند على قوة الجسم
والأبد الشديد، يتأسس يدفع غائرة الوحش والقبائل المجاورة بكل ما
استطاع البطل العربي القديم في صورته من اتخاذه عدة له في القتال.
عدها ليس فيها ما صنعته الآلهة له كي تعنيه على النصر، بل كلها
من صنع الإنسان، سواء الدروع أو السيف أو الرمح أو القوس
والسهم، وبالمثل الخيل الذي يصلح ويجبر عليها الفرسان وهي تصل
من تحمى ليست خيلاً من السبب، بل هي خيل من الواقع، تزويت في


أحباط الصحراء، بل تربت في أحباط الأبطال، حتى ليحس كل منهم أن فرسه بضعة من نفسه، بل لكأنها جزء لا يتجزأ من نفسه في أطبائه وقيمه أو عشيرته فهاروس الشهبة أو البيضاء أو الوارد، ولهلم للفت اهتمامهم بأسماءه اسمهم بأساسهم دلالة على الأصالة والنفسية، وكأنها فصلت من ذات نفسها وقوتهم وتاريخهم وحياتهم.

وليفق العرب قليلاً بطولهم عند جنوب غرب الحب، فقد أتسعا بمجماها حتى شُملت البطولة النفسية، وهي بطولة أبدت إلى كثير من السُفاحات الرفيعة، من ذلك الحلم وهو في واقعه تغلب على ثورة الغضب، أو قل هو تغلب على الثوران والطيش، ومن ذلك الصبر على الشدائد، وهو بدوره تغلب على الهل والفعار إيزا المصابع واقتحام المعابد، وما قد ينزل من الخطوب والتوائب، والبطل لذلك لا يشكو، بل يتجزع النفس في صمت محتل إياها أقوى أحيال. ومن ذلك الحزن وهو بدوره تغلب على التردد في الراية قبل أن تلقت فرصته من يد الشخص، فهو يهلك الوجه الذي يجب أن يسلك لا يقوته تدبيره في التر والساعة، ومن ذلك الكرامة، وهي بدورها تغلب على صغر النفس وشهوارها الوضيعة وتغريف عن الغايات الدنيا إلى الغايات السامية العليا في إياها وهم وأنف وعزة، وأهي ضيم وأي هوا دجنماً المولى الزمام.

وتُخرج هذه البطولة النفسية وأحية الحرب عند القدماء ببطولة خلقية، أسهمت على القوة إزاء غزائهما، حتى ليفخيل إلينا كأن العرب في صجرته وجاهليته مع ما أوقى من الشجاعة التي تتبع له تحقيق مآربه كان يعمل جاهداً على قهر تلك الغازرت، بل لكافنا
كان يجد نفسه في قهرها، فإذا هو يعفّ عفة عن كل متع مادي، حتى في الحرب وعند المغام وجمع الأسلاب. ومن هنا نحس أنه كان يسعى في قوة إلى طاقة من مثل الخلقية العليا، ولم يكن مثله يعنيه كمثل الشرف، فهو يحافظ على حقوقه وهي حقوق تمتد في بعض جوانبها؛ فتصبح واجبات اجتماعية وبطولية، وخاصة حين تعرض قبيلته لمدد من قبيلة مجاورة، وإذ ينقلب، حين تسير بعض نساء عشيرته، فظة معتدلاً لا يشفى من أعدائه إلا سفك الدماء، فكل شيء إلا عار سباء النساء، وكل شيء إلا انتهاك العر وحمائه، إذ يصبح أسدًا كأسراً كل لذته اقتراح الأعداء الذين امتنوا حمائه وداسو مدارج عزه وشرفها. وملأ أعلى رفع آخرين ثواراً كثيرة، هو مثل الكرم الذي سد بطوله الجاهلدين ودمجها دعاً، فقد نبت جذوره في أعماق التغلب على شج النفس، ولم تثبت غصونه أن ارتفعت وانتشرت لا في سباء العشيرة أو القبيلة وحدها، بل في سباء الجزيرة كلها؛ فإذا الكرم يشع الجائع من قومه، ويزى الضيف أي ضيف حتى لو كان من خصومه. وتبث مع شجرة الكرم فروع وغصن كثيرة، إذ يفرح البطل الكرم غمة كل مكروب. وإذا كان قد حمى الجائعين من كرب الجلود فأولى أن يحميم من كرب التشرد في مناهج الصحرا، حتى لو نبذتهم قبائلهم لبعض الختأيات، وخاصة حين يبلألؤون إليه مستجرين فإنه يلبحقهم بشعوره، وتصبح لهم نفس حقوق أبنائهم، عهد لا بد أن يوفوا بهمها ضحايا في سبيله. وكأنما يجلبون الوقاية واحضار
على العهد إجلالًا لا حدود له.
وعلى هذا النحو عانقت البطولة العربية عند العرب قبل ظهور الإسلام ببطولة خلقية اجتياعة، جعلت أبطالهم ومن ورائهم عشاؤتهم وقبائلهم يسعون إلى تحقيق طاقة من المثل العليا، ويلوحون في السعي حتى استقامت لهم شمائلهم ومناقبهم، وبالمثل عانقت بطولتهم العربية ببطولة نفسية جعلتهم يسعون إلى تحقيق طاقة أخرى من تلك المناقبل وكأنها يتصالون بها صياحاً عاليًا، ويتخلل هذا الصياح هتافهم الذي لا يقطع بالبراقة والشجاعة ومنزلة الأشرار وإزاحق نفسهم وسفن دمائهم. ولللكثير من أبطال الجاهلية دواوير تمثلت في صيغتهم وبيان ما أتلوا بأعدائهم من الموت الساحق الذي لا يبقى ولا يذر، كما تمتلئ بتميمهم النفسية والقلعة التي كانوا يحرصون عليها حرصهم على أرواحهم مزدرين الصغار والشاموات في سبيل مطامح النفس الكريمة التي تعرض عن النقص وتفتق عليها، وسبيل الحقوق والواجبات القبلية، وما يتطلب الشرف والمجد العريض من خصال نبيلة، ولم يتعنح الأبطال وحدهم بهذه البطولة وشعبة الثلاثة: الحربية والنفسية والقلعية الإجتياعة، بل تغلب بها وضي عظمتها ويجدده الشعراء في كل حي وكل عشيرة وكل فج من فجاح البوادي، متخزين من مديهم لأبطاله أداة هذا العجز والعظيم، وصنعوا نفس الصناع ببرائهم، إذ حورى لها ما تم توالين أبطالهم وبيان المعاني والمثل الرفيعة التي تجسدت فيها، وكأنما يريدون أن يخلدون ويعقوروا في ذاكرة محاربيهم والأجيال التالية أن شخوصهم الماديت إن كانت قد بلبية وقتت فشخوصهم التعنوية حيبة بائقة إلى أبد الآبدين.
في الجاهلية

تحولت الجزيرة العربية في الجاهلية إلى ما يشبه ساحة حربية كبيرة، تقتتل فيها العشائر والقبائل، وفي كل جانب يتصبح الأبطال ويشتهر السيف وتعلم الرماح وتصوَّب النبال وتدق الأعناق وتسيل الدماء، والضباط والذباب والنسر والقبان تخطف الأشياء. وقد يرفع صوت ضئيل تخيل كصوت زهير بن أبي سلمى، بالدعاء إلى السلام. وأن تضع الحرب أوزارها، ولا سمع ولا نجيب، فقد أصبح الطعن والقتال والحرب والتزام فرضية الحياة، وكل يكثر عن أشياء مثقلة حسُمًا، يقاتل حتى يُقتل تحت ظلال السيف قتلة شريفة، حتى لببدعين سوء ما بعدها سبة أن يموت الإنسان على فراشه حتف أنه، شأن الحبل الذي يتكون عن الحرب، وما الجبن ينجم عن الموت، فالموت عادة كل إنسان، وإن استقبله برطبة جاش خير من استدباره، بل إن خوض غماره ليد في أسباب الحياة، إذ يتدرب المقدم على الطعام حتى إذا حانت لحظة التنزل حمى نفسه، أما الجبن فيموت رعبًا قبل أن يموت طعناً بالسئان، وهل يمكن أن يكون للجانب في هذا المجتمع الحربي مكان يطمئن إليه؟ إنه أول من يقتل أو أول من ترتد فراقه ويهوى صريعاً، أما الشجاع الجذري، ففي حصن من شجاعته وفي حماية من جراحه، يستعذب الموت ويستخص القتل، وكأنه
يسرع الخطو إليه، يدعو إقدام لا يعرف البالاة ولا الإحمال،
إنما يعرف شق الجبهة وطعن التحور وإزهار النفس.
وحتى كانوا عشائر وقبائل راحلة وراء مساقط الغيث ترعي الأنصام والأنعام، ولكن كان هذه الرحلات لا تمتلك صميم حياتهم، إنما تمثلها السيوف المُشَرعة والسهام المفرقة، وكأنهم كتائب مجهزة، تتجه الوقفة كل رحلة، وفي كل رحلة تجمع الأشلاء وتقبض المصري من الأبطال الشجعان، ولا تثبت أن تعود إلى القتال أشد حفيظة ووجدانًا، تريد أن تضيع أعداؤها من الأرض اجتهادًا وتستأصلهم استئصالًا حتى لا تبقى لهم باقيًا، وقانون أفاموه بينهم إلا يستصرخ أحد من أبناء العشيرة قومه إلا طاروا إليه يجمعهم دون آثار أو سؤال له عن سبب الصراخ والاستغاثة وهو قانون النجدة، كل يادر لتجده وكل يحمل سلاحه، بل كل يستل سيفه يريد أن يحمله في صدور أعدائه. ووفق هذا القانون، عندهم وأحكمه قانون كان يقوم عنهم في الحرب مقام المركز من الدائرة، فعله تقوم و منه تصدر، وإليه ترد، وهو قانون الأخذ بالثأر، فإن قتل من عشيرة شخصًا من عشيرة أخرى تبعه هو وعشيرته ثأر، فلا يُطلق دمه، أو بعبارة أخرى لا يذهب دمه هدراً، بل لابد أن يتأثر له قومه ولا يد أن تسفك من أجله الدماء، ويدخل الطرفان المتقاتلان في معركة لا تنتهي، إذ لا يمكن منها الخلاص، فذائلاً مقتولون، وذائلاً معارض تاحنة، لا يكادون يفرعون من إحداها حتى تنشب معركة جديدة أكثر فتكًا وأشد هولا، وكأنما أصبح سفك الدماء سنةً من سنهم، بل لكأنما أصبح غريزة من غرائزهم، فهم لا يصبرون عليه، وهم
دائمًا عطاش لرؤيته، وخاصة إذا كان إدراكًا لتأثر، فإنهم يحرون على أنفسهم كل متعة الحياة، فلا يقربون الحمر ولا النساء، ولا يصبحون أي شأن من شؤونهم في الثياب أو الزينة، بل يفرعون للحفيظة ولا يزال صدورهم تغلي بالوجبة، ومن حول نساء العشيرة يكون القتيل ويستثيرون بطولته ومناقبه رجاها حتى يسلوا عنهم عار قتله بما يفسحون من دماء قاتله ردماً قومه.

الأثر، التأثر، كلمة كانت ندوا في كل حي وف كل عشيرة، فدائماً دم مسفوح، ودائماً شر معقود، ودائماً رمال تطبع في القلوب. ودائماً سيف تخز في الروس، ودائماً حرب وطعان، وكان أوقات السلام إن هي إلا لحظات لانقاط الأنساك، ثم تلتها كوارث الحرب وما يهاوي فيها من الشجعان والأبطال، حتى ليصبح المتنول فخراً لقبيلته، مثله مثل القاتل، إذ كم من عدان رده عن قبيلته، وكمن أعداء شارك قبيلته في مزيف جموعهم، وكما يدض عنهم ويقاتل حتى قتل، كما يقتل الشجعان الذين يرون أنفسهم راضين لقبائلهم، ومايزالون يأخذون لها بأثرها وأثرها، منزلين يبضموها أثرًا وأثرًا مائلاً، وبذلك كانت حياة الجاهلية حلقات مفرغة من أثر وآثر لا تنسي، فكلما وفر فرد من عشيرة شخصًا من عشيرة أخرى وسكل دمه سارعت عشيرة إلى آخر وفر وأثره، فالعشيرة دائمًا وأثرة مترية، وصوّر ذلك دريد بن الصمّة أحد فرسان الجاهلية وأبطالها قائلاً:

وإنما للحَم السيف غير نكيرة، ونُلحمه حينًا وليس بنّكُرٍ
يشترتين فيشتقت بناء إن أصبنا أو نُغبر على وتر قسمنا بذلك الدُّهر شطرن بيننا فما تقضي إلا نحن على شطر ووضحت أنه يرسم حياته وحياة عشيته، فهم دائماً لم وطعام لسيوف أعداهم، وبالمثل أعداهم دائماً لم وطعام لسيوفهم في غير شك ولا إنكار، فتلك حياتهم، لا يزال القارس منهم يقاتل حتى يختار به، ويتحتج لا يلقى السلاح ولا يستسلم، بل يقتل حتى يقاتله الأعداء، وهم يشعرون غيظهم بدمائهم المفتوحة في بعض معاركهم أو غاراتهم، وكأنما أوقات دهريهم مقسمة قسمين قسم لانصارهم على أعداهم، وقسم لانصار أعداهم عليهم، فدائماً دقيق بالرماح في النحو ودائماً طعن بالسيوف في الصدر، وكأنما تحول إلى الطعن والدقة إلى سجية طبيعي من سجايهم، بل لقد أصبحا غزيرة جوهرة من غرائزهم.
ولعمهم لم يكونوا يشعرون بديئين إزاء آبائهم وأجدادهم كما كانوا يشعرون إزاء الأخذ بأنثرهم وتراثهم، فكان الأحسن إذا قتل أبوه أوجده وهو في المهند أو وهو صبي لم يدرك ارتم الحقد والضغب على قاتله في سويدة قابله، حتى إذا شنب عن الطوق وبلغ مبلغ الشباب عند إلى تخريم كل زينة ومتاع على نفسه فلا يعتذر ولا يشرب خرا، لئلا ينسى تأوه بل لكي يعيش له ولا يغله سواه، وإنه ليحس كأنه وجد ليدرك تأه أبيه أووجهه، ولينتهبه لانتقاماً مروعاً. وقد يكون في قصة قيس بن الخطيم شاعر المدينة في الجاهلية ما يصور ذلك تصويراً دقيقاً، فقد حدث الرواية أن رجلاً من بنى عامر سكان نجد قتل جده
كان يسمى عليه، وأن آباه الحضن قتلهم رجل من بني عبد القيس. وكان عدد من الذين اقتحمهم أثناء زيارتهم لمكان قتلهم، وإثنان من البني عبد القيس، وكانا صبيينًا. كان يطلب أن ينام أباه وجدته، فيدخل دون غائيه، فبعثت إلى كومة من الأثاث عند باب دارها، فوضعت عليها أحجارًا، وجعلت تقول لقيس: ها هنا قرآ أبتك وجدتك، فكان قيس لا يشك في ذلك. وشب قويًا شديد الساعدين، فنافع يومًا في من في بئر قومه، وخوف القلق على نفسه، فقال له هرود عنه: والله لم جعله شدة ساعدتك على قاتل أبيك وجدك لكان خيراً لك، فقال له: ومن قاتل أبي وجدى؟ قال: سل، أملك تخبرك، فقال أمامها، وأمسك بسبيها، فوضع مقبضه على الأرض وجدته القاتل في صدره ملاكًا عليه، وقال لها: أخبرني من قاتل أبي وجدى؟ قالت له: ماتا كما يموت الناس، وهذا قرآها بالفناء، فقال لها: والله لن لم تخبرني من قتلهما لأنكما على هذا السيف حتى يخرج من ظهرها، فأخبرته بالحقيقة. فخرج لته إلى بستانه، فوجد ضعيبًا يستحق عليه الماء من بئر هناك، والدنله ممدودًا. أخذ الماء، فضرب الحبل بسبيها قطعه، وسقط الدلو في البئر، وأخذ برأس البعير، فحمل عليه غارتين من عمر، وركبه قاتلا: من يكيفني أمر أبي، فإن مات أنفق عليها من هذا البستان حتى تموت ثم يكون له، وإن عشت فهو ملي عائد إلى، وله منه أن يأكل ما شاء من عنده. وتكفل له بذلك رجل من قومه، ومضى يومه الأيام والشهور، وهو يتحسس ويبحث، حتى عرف القاتلين. وظل يلتمس غرة من كل مما هو حتى أصابه وأدرك ثوره لأبويه، وقرر: 

عينه واطمنت نفسه، وأنشأ يقول:

"يثار عديناً والخيطم فلم أضع ولاية أمتي كعذبت إزاءها"

وهي قصيدة طويلة تصور مدى ما كان يضطرم في نفسه من غضب عنيف على قاتل أبيه وحده، وكيف كان يتحرك ويتخيل على اقتناها كي يسفك دمها ويبعى عن ظهره أعباء الثوار التي ألقت بكلاهما عليه، وهى نفسه وتكريج بعد طول العذاب وطول العناية.

ويحيل إلى الإنسان كأن كل عربي في الجاهلية كان قيس بن الخطيم، فهو لا يقبل له قرار، إلا إذا أدرك أنه وها عاره، وكذلك كانت كل عربي، ماتزال تصل بئر النار، وماتزال تنزد البطل المقتول وتصبح، وماتزال تنشد الأناشيد الحماسية صراخة من أعماقها في أبطال قبيلتها.

هبا للتأل واغسلا عنا العار وما جلب لنا من الذل والهوان على نحى ماهو معروف عن رؤى الجهلاء لأخواتها صغر ومحورية، وهو ليس رؤية فقط بل هو أيضاً تجسيد لعظم المصاب فيها حتى يحس قومها بما خسروا في البطالين وينكروا بفاتلها ويزعمهم شر ممزق.

وعلى ن.Parse ما كانت سيوفهم مسألة نحو عار الأثار والقعود عنه كانت مسألة أيضاً لا تغمد دفاعة عن الشرف والعرض، ومن خير ما يصور ذلك قصة عرو بن كاثر سيد بن تغلب وبطلهم في الجاهلية مع عمرو بن هند أمير الخزاء، فقد قص الرواة أن هذا الأمير أرسل إلى عمرو بن كاثر يستزره، فأقبل عرو وجمع عوامه من تغلب، ومعهم أمه لبيلى بنت مهليل. وأمر عمرو بن هند بروا بضروب لعمرو وأمه وقومه فيها بين
الخيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل إمارته، فحضوروا، ودخل ابن كثرة على ابن هند في رواقه، ودخلت أمه على هند في جانب من الرواق، فرحبت بها، وكان يجرها أطباك وطرف كثيرة، ولم تلبث أن قالت لليل: ناوليني يا ليلي ذلك الطبق مشيرة إليه، فقالت لها ليلي: لنقم صحة الحاجة إلى خاجها، فأعادت عليها وكررت وعلمت، فصاحت ليلي: واذلاله بالظلم! فسمعها إبناها، فثار الدم في وجهه، وكان بالرواق سيف معلق، فوثب إليه، وضرب به رأس ابن هند ضربة قاتلة، ونادى في أمه ومن معه من قومه، وولوا وجههم مسرعين نحو ديابهم، وفي ذلك نظم معلقته النزوية المشهورة بفتخته فيها فخراً مسرفاً بقوعه وآيهم وانتصارهم في الحروب، وهي مفعمة بالبلاغة في الفخر ووصف البلاء في الحرب، وهي مفعمة أيضاً بروح عاتية كلها عتو وكتها مرد. وهي تصور مدى ثورة الجاهليين حين تسول لشخص نفسه أن يسعى شرفهم من قريب أو من بعيد، فإنهم يتورون ثورة لاحذة لها، ثورة تنهض فيها النفس، وتفارق فيها الأجسام الرهوس. وكانت حماية النساء جزءاً لا يتجزأ من شرفهم وعرضهم، وعلهم لذلك كانوا يصبحون معهم في الحروب، حتى يلهبهم حمية في القتال، وحتى يشعرون بأنواصين وإنجازاتهم وصدقاتهم حماسة وبسالة، وحتى يصدموا دون ذياء عنهم، مما استغرق أوار القتال وهمبا أنت على الرجال والأبطال، وفي ذلك يقول ابن كثرة في معلقته مفاخرًا بناءهم قومه:
أخذنا على بعلتهن عهداً إذا لاقوا كتابة مُعلِّميتنا ليستبُن أفراساً وبيضاً في الحديد مقرتيتنا يقفن جيادنا ويقلن لسم بعلتنا إذا لم تمنعونا إذا لم نحمَن فلا حيننا لشيء بعدهن ولا بقينا.

فساؤهم الحمياء اللائ هخفن قثتهم حباً من ورائهم، وأشد ما يعمهون أن تدور عليهم الدواير في بعض الحروب فيقعون في أيدي الأعداء سبايا وغتان ذليلات صغارات. يقول عمرو إنه أخذن على أزواجهن من الأبطال والشجعان عهدًا ألا يبرحا ساحة القتال إلا بعد تنكيلهم بالفرسان وإراقهم دمهم وحزهم روعهم، ومن بقينهم جاءوا به مقرينًا في الأغلال والقيد، وكن جددتهم إذا لم يذدوعونه وجموهن يباشهم سيفقهم فراق الأبد. يقول عمرو إنه لا حياة لم بدوبين، وهم الدماء يثبتين ثبوت الجبال الرواسى في حمايتهم والدفاع عن حني لذلماه الآخر.

وكان قبائلهم تحمل جناية أى فرد منهم، فبمجرد قتلها شخصًا من قبيلة نصيب قبيلته شريكة معه في دمه، واستقر ذلك في نفوس القبائل جميعًا، بحيث لا تطلب القبيلة تأيها من واترها وحده، بل تطلب من جميع قبيلته كلها، وسرعان ما يتدافعون في حرب مبيدة، وقد تتمتع الحرب، فتحالف القبائل المتحاربات مع قبائل أخرى ونصبً إزاء حلفين كبيرين، وذكولي الوقائع. كانوا يسمونها ياها، لأنهم كانوا يتحاربون نهارًا حتى إذا دخل الليل أغمدوا السيف إلى الصباح. وعادة
يُسِبِّبُها إلى البقاع والبار والجبال التي تنسب بحراها، مثل يوم عين أُنَاع وكان بين المناذرة والغساسنة، يوم شعب جيلة وكان بين عباسة وأحلافها من بني عامر بن صعصعة وبين ذياب وأحلافها من تميم، ويوم الرَّحَنَان بين قيس وقَيم، ويوم بازنة بين ضبة وإياد، ويوم بعاث بين الأسوس والخزرج في المدينة. وكانوا يغدون سيفهم في الأشهر الحرم فلا يقتلون إلا بعض مناشيات اشتركت فيها قريش وكنانة وهوازن وبنو عامر وتسنى أيام الفجار. وتعت أيامهم بالمثلات حتى لقد بلغ بها بعض المصنفين القدماء وهو أبو عبده أَلَّامَة وعاصي يوم، وكان لكل يوم أبطاله وفرسانه المعلمون، ومن أشهر أيامهم يوم ذي قار قبيل الإسلام، وهو اليوم الذي هزت فيه قبيلة بكر بقيادة هانِي بن قيصة الشباقي جموع الفرس وجيوشهم، وذقاق واد متاخم لسواد العراق، ويسى هذا اليوم أيضًا يوم حينُو قتُراقر وهو موضع ينفع ذي قار، وهو أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم مما جعل الأعشى يصبح في وجوههم ب مثل قوله:

وجَنَّدَ كَسَرَى غَدَاةِ الجُنُو بِصِحَامَه
منا غطاسيف ترجو الموت فانصرفوا
لما أمالوا إلى النشاب أَيْديهم
مِلْنا ببٌضٍ فظلَ الهام يُقَتَطَف
وخيل بكر فما تنفك تطحنهم
حتى تواوا وكاد اليوم ينتصف.
لو أن كل معدٍ كان شاركنا
في يوم ذي قار، ما أخطاهم الشرف
والأعشى يهديي باستيال قومه في الحرب وما أزل فرسانهم على
العمم من صراع السيف التي أطلحت برسومهم، وكأنما كانت قد
أينعت وحن قطافها، بل كأنما نصبت رجى كبيرة، تطحنهم طحنًا.
ولم يكد ينتصف النبار حتى ويلوا الأدبار، وبكر من وراءهم تدق قوابهم
وتتفق رؤوسهم، وقت الأعشى أن يعد ذلك اليوم شرفًا للعرب جميعاً
من بعد وغير معد، فقد أديل لم من الفرس وأصبحوا قاب قوسين
أو أديى من سحقهم سحقًا لا تقوم له قائمة من بعده.

ومن أشهر أيامهم في بني حرب السوس التي استمرت أربعين
عامًا بين بكر وغلب وحرب دا حسن والغزراء بين عيس وذبيان وطلها
غير مدافع بل ليتها المقدام علية بن شداد العبسي، كان أبوه من
سادات عبس وشجاعها، أما أمه فكانت جارية حبشية تسمى زبيبة
وكان من تقاليد الجاهلية، إلا يلهموا أبناءهم من الجوارئ والإجاره
بسبب، إلا إذا شاوا وأبدوا شجاعة وسالة فذة، ولا ظلوا عيبداً أذلاء.
وكان أسود اللون، فاجتمع عليه ذلاب، ذل الأمر وذل اللون الذي ورثه
عنها واحسن ذلك في أعياقه، وكان قوي الجسم مريض الخلق، فقدرب
على الحرب والفروسية، وأبوه وقومه غير أبين له. وحدث أن أغارت بعض
أخياء من العرب على حقته، فأصابوا منهم واستعاقوا إبلاً لم، وثار لقومه
فكر عليهم وأبيه بلاء حسنًا في حريبهم واستنقبل الإبل، ففرح به أبوه.
وأُلقِهَ بِنَسِيِّهِ، وَرَدَّ عَلَيْهِ حَرِيَّهُ. وَبِذَلَكَ غَلَبَ ذُلِّ وَلَادِهِ وَذُلَّ لَوْنَهُ، وَأُصِيبَ فِي عَدَدِ قَبْيِلَتِهِ الْأَحْرَارِ الأَبْطَالِ. وَكَانَ يَكِنُّ حُبٌّ لِمِلَّةٍ إِبْنَةٌ عَمِّهِ مَالِكٌ، فَطِلَّبَهَا مِنِّيَّ، وَضَنَّ عَلَيْهِهَا، إِمَّا لِسُوَاءِهِ، إِمَّا لِنَسْبِهِ مِن أَمِّهِ، وَكَانَ حَبِّهِ لَهَا قَدْ مَلَأَ عَلَيْهِ قَلِبَهُ وَعَقْلَهُ، فَحُرُّ فِي نَفْسِهِ رَفْضٌ عَمِّهُ، وَوَضَّلَ مَفْتَنًا بِهَا هَامَّةً أَشْدُ ماَ هَادِمَاً، ثُمَّ مَا تَكُونُ الْفَتْنَةُ وَالْبَيْٰام. وَأَقْرَبَ أَنْ كَانَ الْشَّهَرُ قَدْ أَحْدَحَ يَتْمِجَرُ عَلَى لَسَانِهِ بَعْدًا عَنْبًا سَائِلاً شَرَابِهِ، فَأَخْبَرَهْ أَدْهَا لِلْتَعْمِيرِ عَنْ بَطُولِهِ الْحَرْبِيَّةِ وَجَهَّ الْمُظَّامِ لَابْيْنَةٍ عَمِّهِ الَّتِي شَغِفَ بِهَا وَفَقَنَ جَمَالُهَا، وَإِنَّهُ لَيُلَعَّنُ إِلَيْهَا مِرَارًا أَنَّهُ إِمَّا يَقَاءُلُ وَيَبْسُلُ فِي الْقَطَالِ مِنْ أَجْلَا، وَدَأَمَا خُبَى لاَ يَحْرُحُ ذَكَرُهُ كَحْيَ فِي أُجُورِ الْمَوَافِقِ وَأُقْسِي الْأَظْرَفِ، وَالرِّجَالُ تَأْخُذُهُ وَتَعْبِثُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، عِنْدَهُمَا يَصُوْرُ ذَلِكَ قُوُلُهُ:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالْرِّجَالُ نَوَاهُ

مِنْ وَبْيَضُ الْهَيْدَةِ تَقْطُرُ مِنْ دَيْنِ

فُوْدَتْ تَقْبِيلُ السِّيْفِ لَأَنَّا

لِمَعْتُ كَبَارِقٍ تَغْرُكُ المَتْبَسِمُ

وَهَيْ شَرْفُ حُبِّي، وَإِلَامَةُ نَارِ الْحَرْبِ بِنَسْمَةِ

الْحُبِّ. وَعَلَى نَحْرٍ مَا يَقَاءُلُ لِصَاحِبِهِ بِطُولِهِ الْحَرْبِيَّةِ يَقُولُ لَهَا بِطْوَلِهِ

الْفُنْسِيَّةُ وَالْخَلِيقَةُ عَلَى شَاكْلَةٍ قَوْلُهَا فِي الْمَلْعَةَ:

أَنْتَى عَلَى بِمَا عُلِمَتْ فَإِنْيُنَى

سُمْحَ مَخَالِقِي إِلَّا لَمْ أُظْلِمْ

فَإِذَا ظَلِمَتْ فَإِنْيُنَى بَاَسِلُ

مُرُ مَخَالِقِهِ كَطْمَ عُلَّقِمِ

وَإِذَا شَرَبَتْ فَإِنْيُنَى مَسْتَهِلَكُ

مَالِ وَعِرْضُي وَافِرٌ لَمْ يَكْلَمُ
وإذا صحت فيمأ أقسم عن نداء هلاسالت القوم بالثينة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعليمي أغمي الوعي وأعف عندالغنم يخبر لي من شهد الوقائع أنى وهو يصهر نفسه لعلة أبيا لا يقبل الضيم ولا الظلم بأي لون من ألوانه بل لا يطيقهما فإن ظلم أصيح كالبركان الثائر يرد على الظلم بظلم مرير لا يبي ولا يذير وقد يشرب الخمر ولكنه لا يفسد مروته ولا بطيه الخلقية والنفسية فعرضه وشربه دائما مصونا محبان لا يستطيع أحد أن يمسهما بسوء وكأنهما غليلان لأسد هصور ودائما يسارع إلى المكارم والمجادد وكأنه الغني كرم ومجدد ويوجه لصاحبه بالخطاب أن تسأل عنه الفرسان والأقران ليحدثوها عن شأله وشيء الرقية وكيف أنه يقتحم المعارك ويصل نارها مطينا برود الشجعان كأنه القضاء النازل حتى إذا أخذت كتبته تجمع الغنائم والأسلاب كف وأحمج عفة نفس عظيمة همها المسلم وسطك دمه لا السلب والغنيمة فهو لا يحارب من أجل الغنائم وإنما يحارب من أجل المجد الحركي وشرفه الرفع وتكثر عند عنة الآيات التي يصهر فيها صلابة نفسه واعتداده بكلامه وبألفته وزعته وتفرعه عن الصغائر والمغزيات وتعفه عن كل طعام خيست دني ذمي يقول لا تسقى ماء الحياة بذلة بل فاتفي بالعز كأس الحنطل ولقد أبنت على الطوى وأطله حتى أتال به كريم délai
فهو يرفض ماء الحياة الممزوج بالذل ، بل إنه يرفض الحياة كلها من أجله . أما العز فإنه سعادته في ذيئاه ، وهو يقبل عليه وعلى كوسه ولو كانت مرة بقية الحزن اللى لا يطلق . وهو يؤثر الأطوار والجوع الشديد حيّ الموت على الطعام الكرم الذي يسرده أمثاله من أصحاب النفوس الآبية . ونراح يقفي أمام المرأة نفس هذا الوقف الكرم ، وكان كثيراً ما يسب النساء ، ويحدثنا أنه ما استام أو بعارة أخرى ما راود سبيبة عن نفسها ، بل كان يدع لها حريّتها لتقبله زوجاً أو ترفضه ، فإذا قبّله أدى إلى أهلها صداقها ، كما يحدثنا أنه دامّ يغثر طرقي ويكم بصره عن جارته حتى لا يبذّن بنظراته وتطلالتها . يقول في إياً وهم:

ما استمت أني نفسّها في موطني حتى أوّفي مهرها مولاها وأغص طرق ما بدت لي جارق حتى يوارى جارق ماؤها إلى امرأة سمّح الخليقة ماجد
لا أتبع النفس اللّجوج هواها فنفسه لا تندفع في تحقيق مآربها الجسدية ، بل هو ينفّها كفما بل يغطّها عن هذا المأرب أو ذاك من المآرب التي قد يبمسها صغار النفس من حوله ، حتى تلك المآرب التي تتصل بالمرأة . وناهيك بما
كانت تستشعره السببية من ذن، وكأنما عاهد نفسه الكرمئة أنها بردها اعتبارها وكرامتها، أولاً قبل أن يقربها وقبل أن تقبله زوجها. أما امرأة جنهر فإن رفاهه له جعله لا يد عينه إليها. وإنما لم نحس نفسي خلق لا يقل روعة عن نعمة الحرية. فمازال يكتب سطور هذا الحلم بسنان سيفه وما سفك من دماء أقاربه حتى وافها القدر قبل البعثة بنحو سبع سنوات. وكان تجسيداً في أشعاره لبطولة العرب في الجاهلية من جميع أقطارها الحربية والنفسية والخلقية سبباً في أن تنصب العصور التالية مثالاً للبطولة العربية وكأنه أصبح الناطق عن شعاراتها. ويدور الزمن دورات يخرج فيها العرب من جزيرتهم يفتحون مشارق الأرض وقاطرونها ويلبون في فتحهم بلاء عظيمًا، ويدخلون في معركة لا تكاد تنتهي منها معركة حتى تنشب أخرى مع الترك والفارس والبيزنطيين والروم. ثم يقطعون سهورهم في الليالي الطويلة بالحديث عن أبطالهم وخاصة عبارة بطل الجاهلية ويتكاتر الحديث والقصص عن حب لملكة أبنة عمه ومن حربه وشهائه. وينبلغ القصص في تصوير بطلته حتى لتشويب الأسطورة. ومايزال القصص عنها وعن صاحبها ينمو مع الزمن حتى يتجاوز له أديب مصر، في العصر الناصرى يسمى يوسف بن إسحاق فيصنع منه قصة طويلة ألفها في أجزاء صاغها من السجع والشعر، وقطع الحديث في نهاية كل جزء في تفاصيل وصفه لمعركة حامية الوطيس. حتى يجذب القارئ لتابعة أحداث القصة في الجزء التالي. ومضت العصور التالية بعد عصر يوسف بن إسحاق تفضي إلى القصة خوارق جديدة حتى انتفذت شكلها النهائي في القرن السابع الهجري، وعلم شكل تولى
بيها إلى أسطورة خيالية، ليس للحقيقة فيها إلا طل ضئيل، فعترت لابزال بطل عبس، ولايزال ابن زبية الجارية السوداء، ولا يزال العاشق المفتون بعيبة عمه مالك، ولايزال صاحب الأجداد الحربية في الجزيرة العربية، غير أن القصة لا توقف عند ذلك فإنها تجعله يشارك العرب في حروبهم مع الحبشة والفرس وبيزنطة والحروب الصليبية وروما والأندلس. وبذلك تصيب القصة تاريخ الأجداد الحربية للعرب على مر العصور وكأنما تحولت إلى ملحمة تضم بطولاتهم القديمة في الجاهلية وبطولاتهم التالية في الإسلام، بل لكونها إياذاة العرب التي أودعوا فيها مغامراتهم وبطولاتهم الحربية، وعطرتها فيها نبع لابزال سائلا بالبطولة في بلاده وغير بلاده، بل لابزال يبدون ببطولات خارقة تشمل الحماسة في نفس كل عربي.
في الإسلام

بعث الله محمدًا عليه الصلاة والسلام للعرب والناس أجمعين هادياً ونبياً كربماً بليماً ونذيراً، فلما أخذ يدعو قومه من قريش سخراً منه، وقالوا كاهن أو ساحر أو مجنون. ومضى في دعوته ومضوا يضطهدونه وهو ومن آمن به، فنصبح بعض أتباعه بعلة إلى الحبشة حتى لا تقتسم قريش عن دينهم الحنيف وتردّهم إلى عبادة الأوثان. وخرج الرسول إلى الطائف يدعو أهلها للإسلام لعلهم يكونون أكثر قبولاً لدعوته، فردوه أسوأ ردًّا إذ أغرروا به سفهاءهم فرجموه بالحجارة. ولا يض مس بكم من قومه عرض نفسه في موسم الحج الجاهلي للكعبة على بعض الواقفين من أهل المدينة، قامت به طائفة منهم، وفي الموسم التالي آمنت طائفة أخرى أكثر عداً بايعته على نصرته والدفاع عن حيام دعوته، وأخروا عليه إلحاناً شديداً أن يهاجر إليهم هو وأصحابه لمنعهم وليشاطروه في نشر رسالته والذياد عنها بالسيف حين لا يكون مفر من حمله، وعاهدوه على ذلك عهدًا وثيقًا لا يمكن نقضه. ولا أمعن قريش في تعذيب من آمن يحمد منها أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة قائلًا لهم: إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوتاً ودارًا تأمنون فيها، فخرجوا أرسلًا، وصمتت قريش الباغية على قتل الرسول فهاجر مع أبي بكر الصديق مستخفًهاً، وكان وصوله إلى المدينة يوم عيد لأهلها من الأوس
والخزرج، وكانت الحرب مستمرة بينهما فألف بين قلوبهما، وسُمِّت الأنصار، وسُمِّي الذين هاجروا من مكة باسم المهاجرين، وآخرين يُسمّى جمياً. ولم تلبث الحروب أن نسبت بينهما وأصحابه من أهل المدينة وبين قريش ونابعت الغزوات الكبرى في بدر وفی أحد وانهت بانتصار كلمة الله العليا على كلمة الكافرين السفلى وأعوانهم من اليهود أعداء الإسلام الذين كانوا يعملون سراً وفجراً على تقويض الدعوة الحميدة ناكين.

ولم تكد تدخل السنة العاشرة للهجرة المقابلة لسنة 2 هـ للميلاد حتى آمن الله نوره على العرب، فإذا قبائلهم جميعاً تعتق الإسلام مؤمنة بتعاليمه العقيدة والعملية، متحولة بذلك من قبائل وثني متنابلة مختلصة إلى أمة تتعاون على البر والخير والتقوى، تؤمن بإله واحد يسيطر على الكون ويعقب علمنا بكل ذاته، وبها أهميتها كل شيء. كما تؤمن برسله وكتبه واليوم الآخر وما يصل به من بعث وعاقب وثواب ونجوم. وتفتول بأن وراء عالمنا المادي عالمياً غريباً يشمل على نوعين من الأرواح الخيرة والشريرة هي الملاكية والشياطين. وتؤدي أعمالاً وفروضاً دينية قوامها الصلاة والصيام والحج والزكاة، وتحلي بثنائية خلقية تقوم على نبذ القوامش ما ظهر منها وما بطن ونذ الخمر والقمار والبغي والعدوان والكبر والظلم، واجتناب الأخلاقيات الذئبة مثل الغيبة والغناية والعصبية القبلية التي أشعلت بينهم في الجاهلية الإحر والاحقاد وأحالت حياتهم إلى ترات وتأثر لا تنتهي، ولكن يقضى الإسلام على فكرة الإخوان بالأنهر نقل حقاً من القبلة إلى الدولة، فلم يعد الأمر
يُجرَّب تأريحاً في سلسلة من الحروب والمعارك الطاحنة بل أصبح عقاباً بالملل.
وعلى قبيلة القاتل أن تقدمه لأولى الأمر حتى يلقى جزاءه. وتُرسى الإسلام جانب ذلك نظماً اجتماعياً واقتصادياً جديداً للأمة العربية.
إذ حاول أن يقيم ضرباً من العدالة الاجتماعية في حياتها بفرضه على الموسر أن يرد بعض ماله على الفقير وعلى الصالح العام للأمة، فهو لا يعيش لنفسه وحدها، بل يعيش أيضاً لآمه وي ينبغي أن يتكافل مع أفرادها ويرتبط معهم اجتماعياً واقتصادياً. وكانوا يحلون الربا فحرمه القرآن الكريم، كما حرم التلاعب في البيع، وشرع توريث المرأة وجعل لها حق التصرف في أموالها، ودعا دعوة واسعة إلى تحرير الرقيق.
وعلى هذا النحو رسم الإسلام للحرب مثلاً علياً جديداً في التشريعة والنظم الاجتماعية والاقتصادية في العقيدة وشئون العبادة وفصول القيم الأخلاقية وما ينتمي بها من الفضائل، ففضيلة الكرم التي كان يبالغ فيها الجاهليون طلب فيها الاعتدال ولا تطلق بين التفريط والإفراط، يقول جل شأنه: (ولا تجعل ذلك مما تعلوه إلى عتقك ولا تبسطها كل البسط فتقلد ملماً محسوراً) بل لقد وجه الكرم إلى خدمة المجتمع الجديد مجتمع الأمة، بحيث ينقف الموسر على المعسر، ويسى ذلك فرضاً لله وعدده حقاً مفروضاً إذ يقول: (والذين في أموالهم حتى معلوماً للسائل والمحرم). وكان قد جعلهم حب الانتقام والأخذ بالحار، بدون الصفح والعبور رذيلة، فكدوا فضيلة وثقت عليها وعلى كظم الغيظ مثل قوله: (وجهة عرضهم السموات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون في السراء والضراء والكافرين الغيظ والعافين عن الناس والله)
تجمع هذه الأمة حول الدين الجديد والحكمة والوعظة الحسنة وحدهم، بل لقد اضطر الرسول في مقامه باللندن إلى أن ينزل مشهري قريش والعرب حتى يهدم طواعي الوعظة العثمانية. وطلب التزام ونشبت معارك كثيرة، انتصرت فيها بطلة اللدن الحسنف على بطلة الوعظة العثمانية والعصيبة ما ينبعها من الأخذ بالتأثر وحجة الانتقام. ونبع بعد بين بطولات لا يقهرها سوى التخلص من عار الفهم عن طلب التأثر وعن الصريح والاستغاثة، وبطولات باعها الجاهد في سبيل الله وسيل نشر دينه العظيم، وهو جهاد يفتح للمستشهدين في أبواب جنت النعيم على مصارع يعاب وأبواب رحمته وتحريمه ورضوانه. وتكثير في القرآن الآيات الكريمة التي تخص على الجهاد وبذل الجهاد والأرواح والأموال وكل نفيس غال في سبيل إعلان كلمة الله من مثل قوله تبارك وتعالى: "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بياني مرصوص"، وقوله: "إذا الله أشيء من المؤمنين أنفسهم وأمواتهم بأن لم الحجة يقاتلون في سبيل الله فمكنهم وانتقلن "، وقوله: "الذين آمنوا وهاجروا واجهروا في سبيل الله بأموالهم وأفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون بشرهم وبرحمة منه ورضوان وجنات لم فيها نعم مقيم خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم"، وقوله: "انتصر أخافاً وثقا واجهروا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلككم".
خير لكم إن كنتم تعلمون وقوله: (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا) وقوله: (أعذروهما ما استطعتم من قوة ومن رياط الخيل ترهون به عدو الله وعدوكم). ويقرن القرآن الجهاد كثيرًا بالصرى والثبات واجتاع الكلمة من مثل قوله: (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبان مائتين) وقوله: (يا أبا الذين آمنوا إذا لقيتم فتى رابطوا وذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحن) وقوله: (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) وأصرموه إن الله مع الصابرين.

وكان الرسول عليه السلام لابن يرضى على الجهاد في سبيل الله صادعاً بأمر ربه في مثل قوله تعالى: (يا أبا النبي حرض المؤمنين على القتال) وهو تأثث يخطب في جنده وثورة يحثهم أحاديثه النبوية على شاكلة قوله: (من قتل مهاجداً أو مات مراضاً فحرام على الأرض أن تأكل لحمه وده، ولم يخرج من الدنيا حتى يخرج من ذنوبيك يوم ولدته أمها، وحتى يرى مقعده من الجنة) وقاله: (في كل أمة رهبانية، رهبانية أمي الجهاد) وقاله: (لا يجمع غبار في سبيل الله ودخان جهيم في أنف مسلم) وقاله عن ربه سبحانه: (من خرج مهاجداً في سبيل إبتهاء مرضاً أنا على ضامن أو هو على ضامن، إن قبضته أدخلته الجنة وإن رجعته رجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة) وقاله: (لرباط يوم خير من صيام شهر وقيامه (بالصلاة ليلاً).

وقد أٌھلِت هذه الأحاديث وما يماثلها من كلام الرسول عليه السلام ومن آي الذكر الحكيم الصحابة إلى أبطال خلقوا للجهاد في سبيل الله، أبطال لا يخشون الموت ولا يرهبونه بل إنه يمشى في ركابهم ليُنزلهو
صواعق على أعداء الله ورسوله وديثه الذين استجابوا إلى كباش تنتظر
الذين لا يذكرون معهم حتى تسيل دماؤهم إنهاراً، وكأنما اختصر
الدين الخفيف أبطاله اختراعاً. بل إنه الإيمان وما ينتمي أصحاب الرسول
من الثواب والنعم الأخرى الدائم هو الذي أتاح كل فرد منهم إلى أسد
يُزْرَع ويُثْجَر ويُفْتَك بالكافر فبِكَا ذُرِيعاً. وكأنما أُصْبحوا رموزاً
لبطولات سياوية تصارع بطولات أرضية، مما جعل حروبهم كلها
ظفرًا وانتصارًا مؤزراً. ولكن تضحينا لنا روح هؤلاء الأبطال الجدد
يحسن أن نقف قليلاً لإضاء ما كان من حوار بين الرسول وأصحابه من
المهاجرين والأنصار قبل وقعة بدر الكبرى، فإنه لما علم بمسير قريش
لفتاة جمع أصحابه واستشارهم هل يقدم على حرب قريش وزالاً أو
يجمع؟ فقام المقداد أحد المهاجرين فقال: يا رسول الله امض ما أمرك
الله (من قتال المشركين) فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو
إسرائيل لمؤمن: (فاذبهد أنت وربك فقاتلا إنا هنافعدون) ولكن
اذبهد أنت وربك فقاتلا إنا معدنا مقاتلين، فو الذي يثبت بالحق
لتكون من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك أو يفتح الله
لك بالنصر المبين. فقال له رسول الله خيراً ودعاه له نكر. وأقبل على
الأنصار يريد أن يعرف ما عندهم قاتلاً: أخبروا على أيها الناس،
فقال له سعد بن معاذ الأنصاري: والله لكأنك تريدنا يارسول الله؟
قال: أجل. قال سعد: لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت
به هو الحق، وأعطنيك على ذلك عهودنا ومصيقتنا على السمع والطاعة.
فامض يا رسول الله لما أردت فو الذي يثبت بالحق إن استعرضت بنا
هذا البحر (الأحمر) فغضبت عينك، وما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوناً. إن لئPLEMENT عند الحرب، صلى في اللقاء، لعل الله يريك منا ما نقر به عينك، فأنكشنن على بركة الله. وسر الرسول بقوله، وتوجه إلى القوم فقال لهم: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدي الطائفتين، والله لكأني الآن أُنظر إلى مصارع القوم. وسار مع جنده من المهاجرين والأنصار حتى أُنئ بعدهم بدر، وأقبلت قريش بصناديقها ورجالها في جيش كثيف يبلغ أضعاف جيش المسلمين، والتقت الفتنة، ودا أفرادها بعضهم من بعض، وفيهم رسول الله إلى أصحاببه يحترمهم ويستعين بهم وأثابهم قائلًا: والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً مسبقاً مقبلاً غير مدبِّر إلا أدخله الله الجنة، فقال عمر بن الخطاب: هؤلاء أدخلهم الغزاة، وأتى القوم على جيشه بالصبر في الله على الجهاد، وكان زاد عرضة الحماية، غير النقتى والير، والرشاد.

وهم أصحاب رسول الله على الفتنة الضخمة الباغية يقتلونهم ويحترون رؤوسهم ويأسرهم، حتى ولوا الأدباء وهم صاغرون. وقد خلقوا من ورادهم مائة وأربعين من ساداتهم وأبطالهم بين أسير وقتيل.
غير الأطفال والغناة الكثيرة التي أفاءها الله على المسلمين. ومضت فلول قريش تنز من هول المعركة، وأرجع الصباح والغريد والنحيب في كل دار، وأجمعت قريش أن تعود لحرب محمد وأصحابه، ونازلت تعد لذلك حتى خرجت ومعها النساء ينشدون الأناشيد الحربية، وزالت بجوار أحد: قرب المدينة، ولقيها الرسول وأصحابه، وألبى على بن أبي طالب وحمزة وأبو دجانة بلاحضاً وقاتل الصحابة قالاً شديداً بصير شابين، فثارنت قريش، وتركت الرغبة موقعها، فكر المشركين: وقتلوا طائفة من المسلمين بينهم حمزة بن عبد المطلب، وعسكر الرسول على الرغم من جراحة أصابته وجهه الكريم، صبر مع صابته حتى انشقت الخمرة، وفي تلك الغزوة كان على بطلها ينشد:

لؤمرى لقد قاتلت في حب أحمد
وطاعة ربٍّ بالعباد رحم
وسيق بكفَّى كالشهب أهِذه
أجَّدَ به ين عاتق صميم
فما زلت حتى فقيٍّ رمي جموعهم
وحتى شفينا نفس كل حليم
بعلنا لا نظل إذا قلنا إن ابن أبي طالب كان البطل المعلم الذي
ترجح عند سباع اسمه أبطال الكفار والشركين. ومنصور بطولته
المجيدة أن عمرو بن عبد وَدّ أحد صناديد قريش خرج في غزوة الحندي.

نصر الحجازة من سفاحه رأيه ونصر به مصدق بضربه لاتحدين الله خاذل دينه ونبيه بأعشر الأحزاب، وفي كل غزوة نلتقي به وبطولته الحارقة، وهو يطبع بروؤه المشركون والكافرين، وكأنه يطلب الاستشهاد والقتل ليغزو بالحسينين، رضوان ربه وليته، وحدث فيه كلمة العرب إلى توارثها من قديم: اطلب الموت توبه لك الحياة، فكان يكني أن يرجع أمام متنازله سيفه ذو الفقار فإذا رأسه قد فارق جسد إلى غير مأثوب، وتحت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في سيفه وقبي: لا سيف إلا ذو الفقار ولا في إلا على.
ولا فرغ الرسول من عودة القضاء وعاد إلى المدينة بعث جيشاً مكوناً من ثلاثة آلاف حرب الرم في الشام، وجعل قيادته لزيد بن حارثة.

قال: إن لصحب زيد فالقيادة بلعفر بن أبي طالب، فإن أصيب خلفه عبد الله بن روحان. ومضراً حتى نزلوا معان جنوب الأردن.

فبلغهم أن هرقلي إمبراطور بيزنطة نزل مدينة مادب من أرض البلقاء (عمان) في مائة ألف من الروم وانضم إليه مائة ألف من عرب الشام.

فلما بلغ ذلك زيادة وأصحابه أقاموا في معاين يومين ينظرون في أمرهم.

قال تقد: نكتب إلى رسول الله يخبره بعدد عدونا، فإنا أن بدنا برجال، وإنا أن يأمرنا بأمر فنمضى له، ووقف عبد الله بن رواحة ونادي في الناس قائلًا: يا قوم والله إن الذي تكرون لذة خرجом تطلبنه وقد أدركتموه، يريد الاستشهاد في سبيل الله.

قال: وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا إلى لقاء القوم، فإنا هي إحدى الحسنين.

إما انتصار، وإما استشهاد، فقال الناس: صدق ابن رواحة، وخفوا إلى العدو، وقد امتلأوا حماسة وجمهيرة، وكل منهم يود لو لي مصرعه.

حتى تكتب له الشهادة، وإن رواحة يحرصهم ويجمع منشداً: لكوني أسال الرحمن مغفرة ضربة ذات فرغ تخفف الزيدًا أوطعناً بيدى حران مجهزة بحرية تنفذ الأحشاء والأكيدا.

حتى يقولوا إذا مروعلي جدل، أرشدك الله من غاز، وقد رشدا.

و واضح أنه يتعنّى لنفسه الشهادة بضربة ذات فرغ أو سعة.
تقذف الدم الطاهر، أو طعنة بيد عطشان للدماء تجهز عليه بحرية تتفادى الأحشاء والكبد نفوذاً مثيراً، حتى يذكر المسلمون من بعده بلاءه في الله ودينه، وكأنما استجاب الرحمن دعاءه وسأله، فقد مضت الفئة القليلة، حتى إذا كانت بمثابة إحدى القرى القريبة من مدينة الكرك الحالية بالأردن لقيت جيش الأعداء، والتحم القتال، وترأى المسلمون على حيام الموت، وقاتل قادةهم زيد بن حارثة وبيدها اللواء قتالاً مستمراً حتى قتلت، وقد جمعوا إلى جمعة ابن أبي طالب، فعبر فرسه، وقاتل حتى قُطعت يده، فأخذ اللواء بيساره فقطعت فاحتشده، وقد غرق في الدم، وروته ترفيض وهو ينشد:

يا حِبَّا الجنة، واقتربت طيبة وبارداً شرابها وحلل منه اللواء عبد الله بن رواحة، واقتحم القوم على فرسه، يقلهم ويسفك دماءهم ذات الدم، ذات الشبل وهو يستدير نفسه ويهزها ويدفعها دفعاً إلى الضراب والطعان، حتى تحققه له ما ظل يصبر إليه من الاستشهاد في سبيل الله، وكان ليازلاً يهجيه بمثل أقسمت يانفُسُ لتنزلتِ طائفةً أو فلتُكرَهِنَّهُ قد أجلب الناس وشدا الرئة ملأ أراك تكرهين الجهنه قد طالما قد كنت مَطَمَّتُهُ وقاله:

يا نفسُ إلا تُقَتَّلِ تموَّقُ هذا جمَّام الموت قد لقيت
وأما تمنيت فقدم أعطيت وإن تأخرت فقد شقيت وانتهى اللواء إلى خالد بن الوليد، فرأى من الحكمة أن يتصرف بمن مه عن الحرب، فانجاز بهم وعاد إلى المدينة. وكان ما أظهرت هذه الجماعة القليلة من البسالة هي التي جعلت الروم فيها بعد كلما تقوا بالمسلمين في عصر الفتوح ألقوا إليهم عن يد وهم صاغرون.

ولم يصور الأبطال وحدهم بطولتهم في غزوات الرسول، فقد كان يشركهم في تصويرها الشعراء من حولهم. وعلل شاعراً لم يشتر بذلك كما اشتهر حسان بن ثابت شاعر الأنصار، ويقال إنه لم يشتر مع الرسول غزوة لعنة كانت قد أصابته، وهو إن لم يشتر معه سيفه عن عجب، فقد شعر معه لسانه على قريش وخصوصه ولم تنسب معركة أبل فيها المسلمين إلا وقف عندما طولا يسجل بلاءهم وجهادهم المستميت.

واتصت أخيراً وبعد كفاح شديد بطولة هؤلاء المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لريهم وديهم، وعمت أضواء الدين الحنيف الجزيرة العربية.

وكان الرسول قد أعد جيشاً لحرب الروم، وأصابه الإخفاق في موتاً كما مر بنا آنفاً فرأى أن يعد جيشاً جديداً، وذكر الرواة أنه أرسل سلماً إلى الملك من بينهم ملك الروم وملك فارس يدعوهم إلى الإسلام، ويحملهم تبهة أقوامهم، فردّ ملك الروم وملك فارس يدعوهم إلى الإسلام، ولما انتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلي رأى أبو بكر خليفته أنه ينبغي فكرته في دعوته ملكي الفرس والروم إلى الإسلام ونشر بين أقوامهم إن لم يكن بالسلم فالسيف وحراً الباب. خرجت الجيوش شرقاً وشمالاً، ففتح العراق وفتحت فارس، وفتح الشام وفتحت مصر، ثم فتح الشمال.
الغربي وفتحت الأندلس، وفتحت السند وجحيرة وسرقوئن. وأهم
سبي في قبول هذه البلدان الحكم العربي حيث ما رسمه الإسلام للبلدان
المحفزة والإمام المغلوبة من المعاملة الحسنة، على نحو ما يصور ذلك عهد
الرسول عليه السلام لنصارى نجران فقد أمر أن لا يسم كنائسهم
وأن ترك لهم الحرية كاملا في ممارسة عبادتهم، وأوجب ألا يقتتل شيخ
ولا طفل ولا امرأة. وعن هذه المعاملة المنصفة صدر أبو بكر وعمر
وعثمان في وصاياه لأمراء الجيش الفاتحة، وكانوا حين بدوهم
يطعونهم فيهم حاضرين على الجهاد في سبيل الله ونشر دينه الحنيف في أقفار
الأرض، وأن يرعوا في معاملة الشعوب المحفزة ربهم. وكان أبو بكر
يطلب إليهم دائما ألا يعنوا ولا يبغروا ولا يمثليهم بقتل ولا يقتلا
شيخاً كبيراً ولا طفل صغيراً ولا امرأة، ولا يفسدوا زرعهم ولا يستحلوا
ماما إلا ما يحتاجون إليه لطعامهم ولا يعرضوا لرهبان النصارى بشيء
يؤذونهم. واقتدى به عمر بن الخطاب، فكان يثبت على الجهاد حتى
تطرأ كلمة الله ويتشر دينه في الأرض، كما كان يثبت على حسن المعاملة
للأمم الأجنبية وأن ينزز العرب أنفسهم عن عرض الدنيا. وبالمثل كان
يصنع عيان.

ولكن هذه الشعوب والبلدان التي سميها لم تذهب للعرب إلا بعد
خطوب حرية شديدة وبعد أحداث عسكرية جسام، فقد ظلت تقاوم
حتى قهرها البطولة العربية واضطرتها إلى الإذعان والاستسلام، وهي
مقاومة حولها إلى ساحات حرية كبيرة، كان النصر فيها دائما حليف
العرب لصورهم في القتال وصدقهم في النزال، ولكنهم كانوا يطلبون
الاستشهاد، حتى يدخلوا الجنة من أروع أبوابها. وكانوا كلما فتحوا
بلدًا أو انتصروا في معركة اشتدت بهم حماسهم فطلبوا معركة جديدة
مؤمنين بأن الجنة تحت ظلال السيوف. وكان لا يزال قوادهم يقتربون
مستديرين فيهم لديهم، وكان يقوم فيهم وعاظ كثيرون يهديهم
في الدنيا ومتاعها الزائل، ويرغبون في طلب ما وعد الله به المجاهدين
من النعم الدائم، مما جعلهم يحرصون على الموت أكثر من حرصهم على
الحياة. ويخيل إلى الإنسان أن كل عربى في الجزيرة أحس في عمق
أن واجبه الأول إزالته لا أن يصل ويؤذي فروع دينه فحسب، بل
أيضاً أن ينتظم في صفوف المجاهدين في سبيل الله وأن يتخذ كل وسيلة
لكي يظهر اسمه في لوحات الشرف، لوحات الاستشهاد والفوز
برضوان الله وقد وضع كل منهم شعارًا نصب عينيه: (ولا تحسن
الذين قُطّعوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند رحمهم يرزقون فرحين بما آتاه
الله من فضلهم). وهو ينافض في سبيل هذا الشعور قريبا إلى الله وله
لحنانه، وأخذت سبيل الجيوش الفاتحة تتفوق على العراق والشام،
وأخذت البطولة العربية تتجلى في أعظم معارضها ومشاهدتها، في الرجال
والنساء اللائي كن يشهدن المعارك وحرصات محسات، بينما كان
البطال يدرون كالنحل بأشعار الحماسة. ولن نستطيع أن نعرض لهذه
المعارك وبطولاتها بالتفصيل في هذا الكتاب المجلد، ومن أجل ذلك
نكتفي بالوقوف عند معركة كبيرة واحدة هي معركة القادسية بالقرب من
الكوافة التي فتحتها بعدها للعرب أبا بكر فارس، وكان سعد بن أبي
وقاص الصحابة الجليل يقود الجيش العربي، وكان رسم بطل الفرس
وقائهم الفذ يقود جيشهم الضخم الذي أرادوا به أن يقفوا السيل العربي ويجروا بينه وبين الانبساط والاعتداد. وصمم العرب على أن يتاحوا حتى تشع بينهم شريعة الإسلام، حتى يثبتوا لأداء واجبهم الإنساني العظيم، وكان ذلك موثقاً بين الله وبين العرب رجاءهم ونساؤهم، ومن أروع الأمثلة التي تصور هذا الموقف صنع الخنساء في ليلة القادسية وكانت قد هاجرت إليها مع أولادها الأربعة لتشهد جهادهم في الفتوح وقد حملت النس، وكانت قد اشهرت في الجاهلية بكمالها على أخريها صخرة وموالاة، وظلت تلبس الحداد عليها سنوات طوالاً ودمها لا يبرق ولا يشفف. ودخلت في الإسلام وحسن إسلامها، حتى إذا كانت خلافة عمر احتسبت أفلذاً كدبها الأربعة للجهاد، وخرجت معهم إلى القادسية، وسعد مسفر بجيشه ينتظر في العقد الموقعة الفاقهة، فتوجهت إلى أبنائها توصيه وتدلع الحمية لدينهن في قلوبهن، فأتى بناء إنكم أسلمتم طائعين، هاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم لبى رجل واحد وأمرة واحدة، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجليل في حرب الكافرين، وأعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الدنيا، يقول الله تبارك وتعالى: ( يأيها الذين آمنوا أصبوا وصابروا ورابطاً واتقوا الله لعلكم تفلحون) فإذا أصبحتم غداً سالين فاذداً عدوكم مستنصرين وباقة على أعداء مستنصرين، فإذا رأيت الحرب قد شتقت عن ساقها، فيعملوا (فاصدوا) وطيسوا تظروا بالعلم والكرامة في دار الخلد والمقامة. وما كادت الخنساء تسمك كلامها حتى عاهد كل ولد من أولادها نفسه وربه أن يبادر إلى الحرب
حين يسمع نفراً. ومبدروا مبكرين، وحمل أولم، وهو يتشد:

يا إخوتي إن العجوز الناصحة قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة مقالة ذات بيان واضح فيباكر والحرب الضروس الكالحة وأنتم بين حياة صالحة أو ميّة تورث غنماً رابحة وكأنه يشير في الشطر الأخير إلى قوله تعالى: (أَيَأْيُوبُ الَّذِينَ آمَنُوا هَل أَذَلَّكُمُ اللَّيْلَةِ وَالشَّمَاعَةِ مِن عَذَابٍ تَعِينُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالجَاهِدِينَ في سبيل الله بثَّالثِّكم وأنفسكم) وكتب له أن يصيب ما كان يتسبو إليه من تجارة وربح كبير، فقد ظل يقاتل حتى قتل شهدا. وحمل أخوه من ورائه وهو يهتف:

إن العجوز ذات حزم وجلد والنظر الأوف والرآى السد فيباكر والحرب حمامة في العدد إما لفوز بارد على الكبد أو ميّة تورشكم عز الأبد في جنة الفردوس والعيش الرغد وهو يصف جنة الفردوس التي أحدث للمجاهدين بما جاء في نعتها من قوله جل شأنه في خطابة لآدم: (وقلنا يا آدم اسكن أن وزوجه الكينة وكلا منها رجداً حيث شتائنا) ومعى يطلب عيشها الرغد وقاتل في لفته على الاستشهاد حتى قتل. وحمل حملهمما أخوهما الثالث وهو يلوح بسيفه في وجه الفرس مشداً:

والله لا نعصي العجوز حرفاً قد أمرتنا حبباً وعطفاً نصحاً وبراء صادقاً ولطفاً فيبادروا الحرب الضروس زحفا.
ولعله يشير إلى الآية الكريمة: (إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار). ومالزال يقاتل الفرس مقدمًا غير محجم ومحلا غير مديب حتى مات مبتدأ الأبرار. وجعل أخوه الرابع، وهو يرتقي أتياتًا من مثل قوله:

إما فوز عاجل ومغتصم أو لوفاة في السبيل الأكرم، واختاره الله لجواره، فلحق بأخيه. وتلقت الحسناء خبر مقتله، وكأتنا كانت في انتظاره، فلم تهن عليهم نواحًا على أخويها في الجاهلية ولاصحت ولا أعلنت، بل كأنا فرحنا لم واستبشرنا، وإذا هي تقول لن أبلغوها نعمهم: الحمد لله الذي شرفني بقتليهم في معارك الجهاد الشريفة، وأرجو منه أن يسمعني بهم في مستقر رحمته.

وجمي وطيس المعركة، وخطب أمر كل فرقة من فرق الجيش العربي أصحابه وحضّهم على الصبر في الجهاد وأن يكونوا كأسود الغاب وأن يساعوا إلى مغفرة من رحمة وعنة عرضها السموات والأرض أعدت للمجاهدين. وتوافق الجند العربي وتعاهدوا للمعركة الفاصلة، وأخذ القائد العظيم سعد بن أبي وقاص يثير أهل النجدة من أمثال عمرو بن مديكرب، وقيس بن مكحول المارد، وعروة بن زيد الخليل، وشرين ربيعة المخمعي، والشعراء من أمثال الشيخ، وعبدة بن الطبيب، وربيعة ابن مقوم الضبي، وعروة بن شأس الأسد، قاتلًا: قوموا في الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس، فذكروهم وحرضهم على القتال. وأمر سعد القراء أن يقرعوا سورة الجهاد والفتح في كل كتيبة، فاطمأت قلوب الناس وأقبلوا في حماسة
على الجهاد، وكَبِّرَ سَعد ثلاث تكبيرات، وبرز أهل النجاحات والبطولة، والباء فأنشبوا القتال.

وأخذ الجيش الفارسي الضخم يهاوى تحت أقدام البطولة العربية، وسالت دماء الآعاج آملاً، وأنزل الله نصره على المجاهدين في سبيله بعد أن زالوا زالاً شديداً، فإذا الآعاج يلون الأدبار بعد أن تركوا رواهم ثلاثين ألف قتيل غير آلاف الأسرى وما خلفوا في معسكرهم من سلاح ومونة وأداة وعذة. وبلغ من فزعهم وروعهم أن كان المجاهد يدعو الرجل منهم فأنثي حتى يقف بين يديه فيضرب عنقه، وحتى إنه ليأخذ منه سلاحه فقتله به، وحتى إنه ليعمر الأعجمين أن يتقتل أحدهما صاحبه فيصدعان بالأمر رهبة ورعياً. وفخ فرسان العرب وأبطالهم بما أبلوا في هذا النصر فخراً طويلاً من مثل قول بشر بن ربيعة الخنثى:

تَذَكِّرُنَا هُدَىِ اللَّهِ لَوْ قَوْمٌ أَنْ يُسِيرُ عِشْرَةَ وَدَّ الْقُوَمَ أو أن بعضهم يُعَار جَنَاحَي طَائِرٍ فَيَطِيرُ إذا ما فرغنا من قراء كتبنا دلَّنا لأخرى كالجبال تسير، وقيل رسم قائد الفرس في المعركة، وتتزاع شرف قتله كثيرون، ويهب أن رماحاً كثيرة سقطت عليه حين ضربه قيس بن مكحول المرادي بسيفه، فشل رأسه وخرصاً يترنع في دمه. مما جعل غير بطل ينسب هذاشرف إلى نفسه في شعره، وقد سجله قيس لنفسه مثل قوله:

وَلَا أَنْ رَأَيت الهلَّ خَلِيلًا قَصَدَتْ لوُفَقُ الملك الهمام، فأضرب رأسه فهو سريعاً، بسيف لا أفل ولا كهام.
وأزالت تسقط أحجارها
كانت الجزيرة كلها قد تتعلق فؤادها بهذه المعركة، لما كانت ترى فيها من مصيرها، فإنما ينثر العرب على الفرس إلى الأبد، وإنما ينثر لا قدر الله إلى الأبد. وكانت لا تزال تسقط أحجارها
فريد أن تعرف ما سيكون من أمرها، كأن الرجل يعرض عليه أمر،
فقول لا أنظر فيه حتى أرى ما يكون من أمر القادسية. فلما جاءهم النصر العظيم وقفت إليهم بشري أخذوا ينغرن به رجلا ونساء وكل قبائل تغيى بلاء أبنائها، تغيى الشجاعة وغيها من القبائل اليمنية، وغيها من القبائل المصرية. من ذلك أن امرأة سمعها الناس لبلا كتب صبيان في اليمن، وهي تغني بأبيات تشد ببطولة قومها
الشجاعة في القادسية، وفيها تقول على لسان أحدهم
فحيشتك على عصبة نهزية، حسان الوجه آمنوا محمد أقاموا لكسرى يضربون جنوده بكل رقيق الشفرتين مهنئين
وتظاهرت في عامة بلاد الجزيرة أغان على هذه الشاشا تملأ شجاعة المجاهدين وتشهد ببساطتهم. وافقهم أهال الحرب في غير خوف ولا وجل، بل في إقدام لا يفوقه إقدام، ويلحق بهم القاعدون، كل يريد أن يشارك في شرف الجهاد. ويدعى الجيش العربي بعد القادسية مهما إيران، ويغيم كل مقاومة تلقاه في جلولاه في نهاية وفيها وراءهما من بلدان حتى خراسان، ويغيم المجاهدون بانتصارهم، وهم أنزلوا بالأعاجم من تقتيل ساحق وهزائم منكرة، وما كشفه عن كتابهم من خطوب ومكاء ومتفائل مزروعة.
وبهذه الروح الغلابة التي لا تقوم انصر العرب على الفرس وقوسهم في بلادهم، كما انتصرا على الروم في الشام ومصر وشمال إفريقيا؛ وكل هذه الفتوح كلفت الجيش العربي خطوبًا شدادًا وأهوالًا من المعارك والقتال والصراع والتزام، وفي كل معركة وكل فتح تتجلى بطولتهم وتجلى أمجادهم الحربية، وتجلى معها ما نظموه من أناشيد حماسية.

وكأنا أريد لهذا السيل الطائع الذي غمر الفجاج والشعاب من أواست آسيا إلى مصر وشمال إفريقيا أن يتوقف فجأة وعلى غير انتظار فشبت فتنة عيان التي انتهت بمقتله، وبايع آهل المدينة على بن أبي طالب تطررت الأمور وشبت الحرب بين على وخصومه في صفين وانتهت بقبوله التحكيم، وثار عليه فريق من جيشه لهذا القبول كأنه لا يعرف أنه على حق، ومد نواة الفرقة المعروفة باسم الخوارج، وحاربهم وقتله فضيلة وانهت مقاليد الخلافة إلى معاوية، فجمع الناس، وأخذ بحكمه يحاول أن يزل من بينهم نار العداوة والبغضاء التي أجلها حروب صفين، وخدت النار في الظاهر، وظل جمعر كثير مستتراً وراء الرماد، وهو جمعر أعد لظهور أحزاب متعددة إذا الحجاز والقبائل الفيسيسة للتف حول عبد الله بن الزبير مما أتاح للحزب الزبيري أن يتكون، وتكون حزب التف حول البيت الهاشمي هو حزب الشيعة الذي كان يتخذ الكوفة مستقرًا له ومقاماً منذ خلافة على إضافة إياها حاضرة الخلافة، وتكون حزب ثالث هو حزب الأمويين أصحاب السلطان بنصرهم ويزيدونهم ويدعون لهم، وتكون حزب الخوارج الذي كان ينكر أن تكون الخلافة مقصورة على أي قبيلة: قريش أو غيرها، ويرى
أن تكون شورى بين المسلمين يتولاها أكذؤهم وأحقهم بها ولو كان
أعميًا غير عرب حتى تحقق المساواة والعدلاء بين أفراد الأمة.
ولعلنا نبالغ إذا قلنا إن البطولة العربية لم تمثل في حزب
كما تمثل في حزب الخوارج، وقد تحول كل منهم إلى جاهد شاكي السلاح
بطل الموت والشهادة في ميدان الجهاد، أما جماعاتهم فتحولت إلى
كتائب حرية تقبل على الموت بنغمة راضية، وكان الباب
المرصى بينا وبين فراديس الجنان في تريد اجتيازه حتى تنتقل إلى الملاك
الأعلى. ولم يكن ينتمي هذا الانتقال والسرعة في تحقيقه دون ريب
أو بطء رجوعي وفدهم، بل كان يتنامى أيضاً نساؤهم وكان منهن من
يحملن السيف معهن مثل أم حكيم بطلة الأزارقة، وكانت من أشجع
النساء وأجملهن وجهًا، وخطبتها جماعة فردتهم ولم تجازهم، وكانت
تحمل على الناس، وأصبحت يندفعنها بالآباء والأمهات، وهي تصول
وعلى وترتج بمثل قولها:
أحمل رأساً قد سمعت حملته وقد مَلِّتُ دَهَنَه وغسله
ألا فَتى يحمل عَنْي ثُقلته
وهذه صورة رائعة للبطولة تصور فيها أم حكيم أمينًا في الفوز
بالمدينة، وقد ضاقت من تحتها تحقيقها، حتى غدت الحياة
أمامها مملة ملا فظيعة، وحتى أصبحت تشعر كان رأسها الذي تريد له
أن يفرق جسدها عبنًا ثقيلاً تحمله متنقلة بين صرف القنال، وهي
تريد أن تتخلص منه، حتى تنفد من حياة الدنيا الزائدة إلى حياة
الآخرة الباقية.
من أكتر أبطال الخوارج قاطبة قطرياً بن النجاءة المازني زعيم فرقة الأزارقة بفارس، وقد ظل نحو عشرين سنة يقاتل جيش الأمويين، ويتصر عليهم، حتى قتل بعد معارك عنيفة، وله أشعار كثيرة يصوّر فيها بلاده في الحرب، والأمويين يرسلون إلى الحملة تلوا الحملة، وهو لا يريحهم ولا يسرحُ، فبين جنوبه بطوله لا تظهر، وهي ذاكرة بنفسه ويقوم ويدافع ما وسعناه المدافعه في كل شبر من الأرض، لا يستسلم ولا يلبس السلاح خوفاً من حمام أو موت، وما يبني يدعو نفسه إلى الصبر والنِبّات بمثال قوله في حماسيته الملتهب التي يخاطب فيها نفسه بقوله:

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لتنرّاعي فإنك لو سألت بقاء يوم. فأتنى الخلد بمستفعٍ وقَصِبْرَا في مجال الموت صَبَراً، ولا تربُّ البقاء بثوبٍ عزر فيطوى عن أخى الخنعة البراع سبيل الموت غاية كل حيٍّ قدَاي لأهل الأُضٍ داعي وَرَنْ لا يعتبَطَ يُسُـى وَيُهْرَم وَتسلمه المنون إلى انقطاع وما للمرء خيرٌ في حياة إلا ما عدت من سقط التباع والقطعة تفيض ببسالة قوية لا تعرف ضعفاً ولا فتوراً ولا تردداً ولا إحجاماً، وهو يصوّر فيها نفسه في المآذ الضنك حين لا بنى من الموت مفر، فتَبَلع النفس وتَجْعَع، أما هو فلا ينكش، بل يظل.
يقتحم أهلال الحرب بخاطراً مخاطرة جريئة بنفسه. فإنه ليبدعها أن تظل صلة قوية، وتم تخاف؟ أم الموت؟ وهل يموت أحد إلا وقد بلغ أجرله الذي قد تى فيه أم الكتاب؟ إنا أ낀 لا يطيب أبلا ولا يؤخر إنساناً يومًا عن يومه الموعود، وإنا عره بكل إنسان أن يصر في الحرب حتى الموت، وحتى لا يلحقه عار الفرار والاستسلام المهن، وكل الناس ميتون فإن يخلد أحد، وهل الحياة باقياً؟ حتى يحاول إنسان أن يستطيلها ويستقيها؟ وفي الحرص عليها، وهي حياة غيضة ثقلها؟ إن الناس جميعاً سيتوقفون ويأتي الموت على كل الأحياء، ومن لا يعقل أو بعبارة أخرى من لم يبت في عنفوان شبابه مات هرباً قد سم الحياة حتى ليبرد أن يخلص منها ويستريح. وإننالنأسى لبطولية هؤلاء الخوارج إذ أنفقهم في حرب إخوانهم في الدين، وكان حريةٌ بهم أن يتفقوا في حرب أعدائهم الحقيقيين من الأمام الأجنبي، إذن لما التقسم العرب في أواح أمهم صفوفًا تناثراً وتقاتل ويسفك بعضها دماء بعض، ولظلوا مقبلين على فتوحهم، ففتحوا بقية العالم، وتغير وجه التاريخ.
في الحروب مع الروم

سحق العرب في عهد أبي بكر وعمر وعثمان الروم سحقاً ذريعاً،
اضطرهم إلى أن يرفضوا أية من الشام ومصر، وأخذوا يرفعونها عن
إفريقيا مكرهين مهورين مفهورين، حتى إذا ولي الأميون تقدموا إلى
المحيط الأطلسي وعبروا المضيق إلى إسبانيا حيث صمت خيبر فرسانهم
على مشارفها الشامية. وكان طبيعيّاً أن يعنى العرب منذ عصر عمر بن
الخطاب بناء أسطول يحمي ثورهم المنصفة على البحر المتوسط، وأخذ
هذا الأسطول يحبس المياه الشامية وال مصرية، ودفعه معاوية إلى التخلل
في البحر، ففتحت قبرص لبنة ثمان وعشرين لعشت، وفتحت رودس
لسة ثمان وثلاثين، وكسر تملها الضخم الذي كان يعد في العالم
القديم إحدى عجائب الدنيا. ونشبت في البحر من أعجوبة
الإسكندرية لسنا أربع وثلاثين مقعة ذات الصواري، بين الأسطول
العربي المصري بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح إلى مصر ليحان
والأسطول البيزنطي الرومي بقيادة إمبراطور بيزنطة قسطنطين بن هرق،
وإلاّ سببت الموقف بذات الصوارى كثرة ما كان بها من صواري
الراكب، وكانت عدّت ألاّ للبيزنطيين، ومائتين للعرب، وانتصر
الأسطول العربي الحديث نصرًا مؤزراً، لم يعد البيزنطيين بعده يفكرون
في غزو الشواطئ الشامية وال مصرية والإفريقية. أما العرب فقد ظلت

57
قلاع أسطولهم وصاروا ينتشر في البحر المتوسط من حين إلى حين، وظلوا يغيرون على الجزر الكثيرة المشتركة فيه وينغتصمون ويعودون، على نحو ما صنع الأسطول المصري بسقية لسنة سبع وأربعين، وقد عادوا إلى رودس ففتحوها لسه ثلاث وخمسين، واستقووا بها حيناً من الحد. وظل الأسطول المصري يغدور ويروح على الجزر الصغيرة حتى إذا كانت سنة 81 للهجرة أرسل سفنه على جزيرة قوصرة التي تبعد نحو ستين ميلاً من صقلية، فاستولى عليها، وكان ذلك إرهاباً لا سيئاء العرب في القرن الثالث على الجزيرة الكبيرة.

وظل العرب منذ استيلائهم على الشام لعهد عمر بن الخطاب يغيرون على الروم البيزنطيين في آسيا الصغرى. وكأنما كانت حركات أسطولهم إما يرد بها أن تسند هذه الغارات وما يصل بها من غزوات، وكادت أن تكون سنوية في بعض الأحيان، وغالباً ما كانت تحدث في الصيف لبرودة الجو في الشتاء وامتلاء الطرق بالصقيع. وكان الروم كثيراً ما يلزم على وجوههم من قبل حتى يصل الجيش العربي إلى الشاطئ المقابل لبيزنطة (القسطنطينية) ولا شيء يرد السيل العام، إلا أن يعود إلى مجدده وصيغته. ومن أهم الغزوات لعهد معاوية، غزوة ابن يزيد لسنة اثنتين وخمسين، إذ جهز له جيشاً اكتسب به آسيا الصغرى حتى بيزنطة، وأعانه بأسطول مدهج بحر ممارة وأجاز بالجيش المضيق، غير أن الأدوار المديدة حالت بينه وبين اقتحام العاصمة، وقدث على أبوبها بعض مناششات قتل فيها الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري، فدفنا بأصل السور المحيط ببيزنطة، وبع العرب من الفتح فقاتروا.
59

راجعين. وربما كانت أكبر غزوة للقسطنطينية في العصر الفتوحى غزوة وفاة السريان على يد الملك. جلس على مروان لها عنترة بن شمة ونائب أبي سفيان، وما أن يقترب أبو سفيان، حتى يفتحها. فحاولوا حصارًا طويلاً، شتاه وصاف، قاهرًا، أهلها قهرًا شديدًا، غير أنه عاد فرفع الحصار حين بلغه نبأ وفاة أبيه. وكأنما ذهب أبو سفيان أدراج الرياح أمام الأمراء في الاستياء على بيزنطة عشيرة، فلم يعودوا إلى حصارها ومحاولة فتحها. ولكنهم ظلوا يعوزون في آسيا الصغرى، ويقطعون من أطرافها قرى ومدنًا مثل طروس وقبرص وقبرصية وحشرة.

وفي كل ما أسفلها من هذه الغزوات البرية والبحرية في الحقبة الإسلامية الأولى كانت البطولة العربية تضطرد في تنوس الشجاع البشائر، يرتفعها عنادة لا ينفع من قوة النفس وصلابتها ونعتها وإحساسها العميق بكرامتها. وفي كل غزوة ضحيتها كبيرى كانت تتجمع أشياء كثيرين من اشتهى بالأساس الشديد، ويكفى أن نذكر منهم بطل واحدًا هو عبد الله البطل الذي كان على طلائع مسلمة بن عبد الملك، وقد شهد غزواته وحروبه مع الروم جميعاً، وأوطاه فروقاً وعربًا وذلًا، وكان يتبنا دائمًا: (قاتلا الذين يلونكم من الكفاح ويجدوا فيكم غلظة)، وكان إذا حدى الوطيس يصرخ: أعن البلدة تقعون؟ ثم يلي بنفسه في تصور الأعداء، فلا يزال يشق رؤوسهم بالسيف، ولا يزال يطعنهم بالرماح مقابلاً على أعدائه، دائماً عن رفاهه، وعلى نحو ما كان يكثر من تقليل البيزنطيين في المعارك كان أكثر من أسرهم، ويكفي إنه أسر قسطنطين.
لا إمبراطورهم لستة مائة وأربع عشرة، وافتدوه بالكثير. ومازال يذبح منهم كل عام ويتحر حتي كانت سنة مائة وأثنتين وعشرين للهجرة، فلم يهزم الناس عنه في بعض المواقع وذرولا يهرون، وأي إثبات والإقدام، وأخذ يدفع فرسه في استبال، وسععربيًا، يقول: اعطني رجاء، فصاح فيه: تقدم، الرفيق وإطفاء الظلامآ أمامك، وتكاثر عليه الروم، فخربهم شهداً. وقد طارت شهيرة بطولته في العصور الإسلامية التالية.

وأعمر هذه الزمن تكون حول شجاعته أساطير كثيرة هيأت لتأليف قصص متعددة حوله. تصور بسانته الخارقة، وهي في جمهورها قصص شعبية، وتظل الحروب بين العرب والروم قائمة على قدم وساق في العصر العباسي، وتحترق قليلًا في عصر المماليك، ثم تتشعل في عصر ابنه المهدي، إذ يغبر الروم في أوائل خلافته على سُمَيساط، ويصمم على أن يكيلهم الصاع صاعين فيجرد ولم يحبشوا ضحماً بقيادة العباسي ابن محمد، ينكل بهم تكيلًا شديداً، وتواصل تجهيزاتهم لم وبرعهم، حتي إذا كانت سنة مائة وثلاث وستين، أعد لهم جيشاً كبيرًا جعل إمارة لابنه الرشيد واختاره ل لماذا طاعة من كبار القدام أذل، ببعض الخسائر جسيمة. وفي السنة التالية توصل الرشيد في سيا الصغرى، وافتتح عدة حصن ومضى على بلغ مضيق القسطنطينية، غانماً لا يكاد يحظى من الدرواب والسلاح، واستنفد من الأعداء كثيرين من أسرى قومه، وقتل من العدو نحو خمسين ألفًا، مما اضطر إمبراطور بيزنطة أن يتعهد لمدة ثلاث سنين بأداء الجزية كل عام: سبعين ألف دينار، واستلأ قله وقلب شعته من الهول والفزع. ويتوفي المهدي فينضيق نقضور
إمبراطور بيزنطة العهد، فقد تولى الخلافة الرشيد وظل طناً فائلاً أنه لا يبلغ من الخزما مبلغ أبيه، فكتب إليه مطالباً برد ما أداء من جزية في السنين الماضية، وما إن يغص الرشيد الكتب حتى يملأه الغضب فيكتب إليه على ظهره: "بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين إلى نقيف كله الروم. قد قرأت كتابك، وللواش ما تزاه دون أن تسمح، والسلام» وسار إليه في سنة ثمانين ومائتين وقائمة، فلأتي الجمعان، وجرح نقيف ثلاث جراحات، وقضى من أصحابه مقتلة عظيمة بلغت أربعين ألفاً، وفي سنة مائة وتسعين عاد إليه في جيش جرار بلغ تعداده مائة وخمسة وثلاثين ألفاً غير المتطوعين، فاخترق آسيا الصغرى، وسبى سبباً كبيراً وغنم ما لا ي تخلي من الغنم، وافتتح هرقلة إحدى مدنهم الكبرى، وخرج بها. وهال ذلك نقيف، فتعهد أن يؤدى الجزية صاغراً، ونقض أحمد قبره عهدهم فغزاهم الرشيد وردهم إلى الطاعة. وقد تغلب الشعراء طويلاً بانتصاراته على نقيف، والروم وفتحه هرقلة، من مثل قول أسجح السلمي: "برقت ساواك في العدو وأمطرت هاماً لها ظل السيف غمام، رأى الإمام وعزمه وحاسمه جنّد، وراء المسلمين قيام، وصلت يداك السيف حين تعلّت أيدى الرجال، وزالت الأقدام، وغلالاً دوّك يابن عم محمد، رصدت: ضوء الصبح والإطلال، وإذا تنبيه رغته إذا غفا، سلبت عليه سيفك الأحلام"
ويقال إن الرشيد أهتز حين بلغ أشعج هذا البيت في القصيدة، وأمر بأن ينشر عليه الدر استحساناً وإعجاباً، فقد عرف كيف يجسم ما أنزله بالررم وتقفر من الرعب الهائل، و *> وحزمه وبأسه ونفاذ بصيرته وشدة شكيمته، و كيف جعل أعداءه لا يفلتون من الخوف صباح مساء، بل إن قراصهم تتعد دائمًا، لما يرون في جبال الحرب من الرؤوس المتطابرة والدماء المسفحة السائلة.

ويدور الزمن دورة، وإذا بدأ في العقد الثاني من القرن الثاني الهجري، وإذا الأمويون يعلم أن تيوفيل إمبراطور بيزنطة يضع يده في يدبابك الثائر على الخلافة بأذريبجان، ويمته السخط والغضب، فأخذ منذ سنة مائتين وخمس عشرة يقود جيشاً جراراً يهبط بها على آسيا الصغرى يقدمه قواده من أمراء أخيه المعتصم وابنه العباس وخلاد بن يزيد الشياحي وجعفر المحيط وعجيب بن عنبسة، ونزل على أنطاكية والمصيصة وطرسوس، ووجه ابنه العباس ببطافة من الكتائب إلى ملطة، أما هو فتعالج بجيشه شالا إلى المطار واصطحب على حصون كثيرة مثل قره وسندرس وستان بالقرب من هرقلة. وعاد الأمويون مظفرًا إلى دمشق وبغداد، وظن تيوفيل أن الفرصة سانحة لانتمامه من تلك الغارات العنيفة على بلاده، فأغار على طرسوس والمصيصة، وقتل من أهلهما مقتلة عظيمة، وبالمثل صنع بخنشه، وأسر كثيرين من المسلمين، وعاد إلى القسطنطينية متهجأ، واستقبل استقبالًا حافلا. وعلم الأمويون بغزارة فاستنشاق غضبًا، وأسرع بجيش لستة مائتين وست عشرة، فاكتسب به الجنوب الغربي لآسيا الصغرى، وكان الروم قد استردوا هرقلة،
ولم يكُد جيشه يطل عليها حتى خرج إليه أهلها طائعين مذعنين، ونساح الجيش في إقليم المطامير، وتلقى أخيرًا بتوفر فوجهته هزيمة ساحقة ولي على إثرها الأدابر عظيماً وراءه غزات كثيرة. وعاد الأمون بجبيه المنتصر إلى دمشق ومنها اتجه إلى مصر في أوائل سنة مائتين وسبع عشرة لقطع ثورة بها، وسرعان ما اقتربت واستقرت الأحوال، وعاد سريعًا إلى الحدود الرومية الثانية، فجاتها وزل قرب آدة وتقدم جيش أو كتائب منه إلى حصن لؤلؤة، غير أن توقف في رده وأبعد في الفرار، فعاد أدرجه دون قتال، ودون استيلاء على حصن سوى ما كان من تسليم حصن لؤلؤة وسكانه. وفي السنة التالية جهز الأمون جيشاً ضخماً لقتال البيزنطيين، وزل به في أرض الروم بموضع أوهير يومي: البُلدان، وارتحلت فرائض الإمبراطور، فأرسل إليه يخشد نظير عودته جيشه دون قتال، إلا أن يقبل أخذ نفقات جيشه وعتاده وإما أن يقبل فل الأسرى من المسلمين دون فداء، وإما أن يقبل أن يصالح ما أفسد قومه من ثور المسلمين على نفقاته. وعند الأمون بالرسل وردته رداً غليظاً، وتقدمت كتائب تستولى على بعض الخصون، وسرعان ما لبي نداء ربه، فنقل جيشه إلى طرسوس. وعلينا أن نعود إذا قلنا إن أكبر شاعر تغنى ببطولته وبطلة جيشه وكتابه وقواده في تلك الحروب المظفرة هو أبو تمام، وله يقول في إحدى مذاقته:

مسترسلون إلى الحروف كأنما بين الحروف وبينهم أرباح
آساد موت مخدراتٍ مالها إلا الصوارف والقنآ آجام
حتى نقصت الروم من بقعة شمعاء ليس لنقضها إبرام
وقصمت عُروة جمعهم فيها وقد جعلت تنفسهم عن غراها الهام وهو يشير في القصيدة إلى أن الأمون في حروبه مع البيزنطيين يصدر عن شعور عريق بنصرة الدين الخفيف ضد أعدائه وما يملأ نفوسهم من استغلال وشرسة وحدة. ويقول إنه يقود جيشًا كثيفًا من موطنًا بذروه ونصره مقدماً لا يبارى على إبحام، وإن كل شخص في الجيش ليحس كأن بينه وبين ضروب الموت أرجاحاً متواصلة، بل لكأنهم جميعاً آشاد غابانها وأجماتها السيف والرماح، وقد ظلوا يطعنون بها الروم حتى كنتهما لم يعد من الممكن أن ننفضوا هذا النصر، الذين الذي قسمت عُروة جمعهم فيها وقد جعلت تنفسهم عن غراها الهام وهو يشير في القصيدة إلى أن الأمون في حروبه مع البيزنطيين يصدر عن شعور عريق بنصرة الدين الخفيف ضد أعدائه وما يملأ نفوسهم من استغلال وشرسة وحدة. ويقول إنه يقود جيشًا كثيفًا من موطنًا بذروه ونصره مقدماً لا يبارى على إبحام، وإن كل شخص في الجيش ليحس كأن بينه وبين ضروب الموت أرجاحاً متواصلة، بل لكأنهم جميعاً آشاد غابانها وأجماتها السيف والرماح، وقد ظلوا يطعنون بها الروم حتى كنتهما لم يعد من الممكن أن ننفضوا هذا النصر، الذين الذي قسمت عُروة جمعهم فيها وقد جعلت تنفسهم عن غراها الهام وهو يشير في القصيدة إلى أن الأمون في حروبه مع البيزنطيين يصدر عن شعور عريق بنصرة الدين الخفيف ضد أعدائه وما يملأ نفوسهم من استغلال وشرسة وحدة. ويقول إنه يقود جيشًا كثيفًا من موطنًا بذروه ونصره مقدماً لا يبارى على إبحام، وإن كل شخص في الجيش ليحس كأن بينه وبين ضروب الموت أرجاحاً متواصلة، بل لكأنهم جميعاً آشاد غابانها وأجماتها السيف والرماح، وقد ظلوا يطعنون بها الروم حتى كنتهما لم يعد من الممكن أن ننفضوا هذا النصر، الذين الذي قسمت عُروة جمعهم فيها وقد جعلت تنفسهم عن غراها الهام وهو يشير في القصيدة إلى أن الأمون في حروبه مع البيزنطيين يصدر عن شعور عريق بنصرة الدين الخفيف ضد أعدائه وما يملأ نفوسهم من استغلال وشرسة وحدة. ويقول إنه يقود جيشًا كثيفًا من موطنًا بذروه ونصره مقدماً لا يبارى على إبحام، وإن كل شخص في الجيش ليحس كأن بينه وبين ضروب الموت أرجاحاً متواصلة، بل لكأنهم جميعاً آشاد غابانها وأجماتها السيف والرماح، وقد ظلوا يطعنون بها الروم حتى كنتهما لم يعد من الممكن أن ننفضوا هذا النصر، الذين الذي قسمت عُروة جمعهم فيها وقد جعلت تنفسهم عن غراها الهام وهو يشير في القصيدة إلى أن الأمون في حروبه مع البيزنطيين يصدر عن شعور عريق بنصرة الدين الخفيف ضد أعدائه وما يملأ نفوسهم من استغلال وشرسة وحدة. ويقول إنه يقود جيشًا كثيفًا من موطنًا بذروه ونصره مقدماً لا يبارى على إبحام، وإن كل شخص في الجيش ليحس كأن بينه وبين ضروب الموت أرجاحاً متواصلة، بل لكأنهم جميعاً آشاد غابانها وأجماتها السيف والرماح، وقد ظلوا يطعنون بها الروم حتى كنتهما لم يعد من الممكن أن ننفضوا هذا النصر، الذين الذي قسمت عُروة جمعهم فيها وقد جعلت تنفسهم عن غراها الهام وهو يشير في القصيدة إلى أن الأمون في حروبه مع البيزنطيين يصدر عن شعور عريق بنصرة الدين الخفيف ضد أعدائه وما يملأ نفوسهم من استغلال وشرسة وحدة. ويقول إنه يقود جيشًا كثيفًا من موطنًا بذروه ونصره مقدماً لا يبارى على إبحام، وإن كل شخص في الجيش ليحس كأن بينه وبين ضروب الموت أرجاحاً متواصلة، بل لكأنهم جميعاً آشاد غابانها وأجماتها السيف والرماح، وقد ظلوا يطعنون بها الروم حتى كنتهما لم يعد من الممكن أن ننفضوا هذا النصر، الذين الذي قسمت عُروة جمعهم فيها وقد جعلت تنفسهم عن غراها الهام وهو يشير في القصيدة إلى أن الأمون في حروبه مع البيزنطيين يصدر عن شعور عريق بنصرة الدين الخفيف ضد أعدائه وما يملأ نفوسهم من استغلال وشرسة وحدة. ويقول إنه يقود جيشًا كثيفًا من موطنًا بذروه ونصره مقدماً لا يبارى على إبحام، وإن كل شخص في الجيش ليحس كأن بينه وبين ضروب الموت أرجاحاً متواصلة، بل لكأنهم جميعاً آشاد غابانها وأجماتها السيف والرماح، وقد ظلوا يطعنون بها الروم حتى كنتهما لم يعد من الممكن أن ننفضوا هذا النصر، الذين الذي قسمت عُروة جمعهم فيها وقد جعلت تنفسهم عن غراها الهام وهو يشير في القصيدة إلى أن الأمون في حروبه مع البيزنطيين يصدر عن شعور عريق بنصرة الدين الخفيف ضد أعدائه وما يملأ نفوسهم من استغلال وشرسة وحدة. ويقول إنه يقود جيشًا كثيفًا من موطنًا بذروه ونصره مقدماً لا يبارى على إبحام، وإن كل شخص في الجيش ليحس كأن بينه وبين ضروب الموت أرجاحاً متواصلة، بل لكأنهم جميعاً آشاد غابانها وأجماتها السيف والرماح، وقد ظلوا يطعنون بها الروم حتى كنتهما لم يعد من الممكن أن ننفضوا هذا النصر، الذين الذي قسمت عُروة جمعهم فيها وقد جعلت تنفسهم عن غراها الهام وهو يشير في القصيدة إلى أن الأمون في حروبه مع البيزنطيين يصدر عن شعور عريق بنصرة الدين الخفيف ضد أعدائه وما يملأ نفوسهم من استغلال وشرسة وحدة. ويقول إنه يقود جيشًا كثيفًا من موطنًا بذروه ونصره مقدماً لا يبارى على إبحام، وإن كل شخص في الجيش ليحس كأن بينه وبين ضروب الموت أرجاحاً متواصلة، بل لكأنهم جميعاً آشاد غابانها وأجماتها السيف والرماح، وقد ظلوا يطعنون بها الروم حتى كنتهما لم يعد من الممكن أن ننفضوا هذا النصر، الذين الذي قسمت عُروة جمعهم فيها وقد جعلت تنفسهم عن غراها الهام وهو يشير في القصيدة إلى أن الأمون في حروبه مع البيزنطيين يصدر عن شعور عريق بنصرة الدين الخفيف ضد أعدائه وما يملأ نفوسهم من استغلال وشرسة وحدة. ويقول إنه يقود جيشًا كثيفًا من موطنًا بذروه ونصره مقدماً لا يبارى على إبحام، وإن كل شخص في الجيش ليحس كأن بينه وبين ضروب الموت أرجاحاً متواصلة، بل لكأنهم جميعاً آشاد غابانها وأجماتها السيف والرماح، وقد ظلوا يطعنون بها الروم حتى كنتهما لم يعد من الممكن أن ننفضوا هذا النصر، الذين الذي قسمت عُروة جمعهم فيها وقد جعلت تنفسهم عن غراها الهام وهو يشير في القصيدة إلى أن الأمون في حروبه مع البيزنطيين يصدر عن شعور عريق بنصرة الدين الخفيف ضد أعدائه وما يملأ نفوسهم من استغلال وشرسة وحدة. ويقول إنه يقود جيشًا كثيفًا من موطنًا بذروه ونصره مقدماً لا يبارى على إبحام، وإن كل شخص في الجيش ليحس كأن بينه وبين ضروب الموت أرجاحاً متواصلة، بل لكأنهم جميعاً آشاد غابانها وأجماتها السيف والرماح، وقد ظلوا يطعنون بها الروم حتىKent.png

...
أتذربيجان وأصحابه ، وسرعان ما سلمت له ململة ، وقاومت زبارة الواقعة في جنوبها الغربي ، فرميت بالجنانين وقتت أجله وسبى ناسها وأطفالها ، وصاحت امرأة وإلروم يجريها في الأغلال : وامتعضها مستفتيتة بالخليفة مستندة . وبلغته استغاثتها وهو ببغداد ، فصاح : لبيك لبيك ! وأمر تواء بالناير للحرب ، فاجتمع له قواده العظام من أمثال محمد بن يوف الفغري الطائر وأشناس وجعفر بن دينار والأفثين وعجيل ابن عنبسة ، وأخذ في تجهيز جيشه بالزاد والسلال ، وعى ، ثم ركب فرسه في مقدمته وكان قد سأل أبا بلاد الروم أنعم؟ فقيل له عمورية فنقش اسمها على النوروز والألوية ، ونتبا بعض المنجمين بإخفاء الحملة فلم يعرن تنزهم أي اههام ، ومضى مسرعا يريد الانتقام من الروم وردعهم ، ونزل بالقرب من طرسوس ، وقسم جيشه حق يطوفهم من جهات مختلفة ، وجعل الغاية أنقرة في الشيا الشرق لسورية ، ومضت أقسام الجيش وكرديسه منزلة بيرة بيفين وجنوده هزائم ساحقة ، والقت في أنقرة وحريتها ودمجها تدميرا ، ثم اتجهت إلى عمورية فحاصرت خمسة عشر يوما ، وظلت ترى أسوارها وأمرها بالجنانين حتى حولها ودمجها واستنفرت من يبدا من الجنود والقادة فاستسلموا بعد قتال مرير ، بلغ قتلاهم فيه تسعة ألفا . وتغيرت كتائب المعتصم وكرديسه جيشه في آسيا الصغرى تستبيح مدين الروم وتسبي نساءهم وتاأر رجلهم وتضع في أيدهم وأرجلهم الأغلال والقيود وتورطهم . ولا وصغارا ورعبا ، غير ما أخذت من الغنائم التي لا تكد تحصر . وكان فتحا مبيناً أفئنا الله على المعتصم والعرب ، مما جعل الشعراء
يهثرون به ملوحيين بأيديهم وأشعارهم في وجه الروم طويلاً، وأبو عام أكبر شاعر سجل هذا الفتح، بل لقد حول تسجيله له إلى ملحنهما الرائعة التي يستهلها بقوله:

السيف أصدقُ أنباءً من الكتب
في حَدَّ الحَدِّ بين الجِدَّ واللَعْبِ

هو بذلك يعلن أن القوة فوق العقل، وحسن يمكن لعقل أمة أن
يأخذ حظه من الحياة والإزدهار دون قوة ترعاه وتندهد. وقد مضى
يهمكم بديعة المتجمين، ذاهباً إلى أن العلم الصادق إنما هو في لمع
السيف لا لمع النجوم والكتب، وأخذ يشيد بالانتصار العظيم في
عمورة، جسماً ما حدث لها من حريق تعلت نيرانه وتزامت في الآفاق
حتى كان الظلماء رغب عن لون ردائه الأسود، أو كان الشمس لاتزال
ساطعة. ويهسَد أبو تمام بطولة المعتصم وما يدعل في قلوب الروم من الهول
والفزع، فيقول:

لم يغَرَ قوماً ولم ينهض إلى بلاده، إلا تقدمه جيش من الرغَم
لوله قد جُمِلَ اليوم الوعي لغداً من نفسه وحدها، على الجَمْح
فداً كما يسبق جيشه الحربي إلى بلاد العدو، جيشه نفسى من الخوف
والرغَم، ويفكر في صلاحة المعتصم وشجاعته إلى لا تعرف ضعفاً
ولا خروجاً، وليا تعرف المضاء والتصميم والقوة التي تهدد كل ما تلقاه
وتعرضه للخطر، حتى لكن المعتصم وحده جيش جرار، ويخشى فيه
تحدها للمرأة الزبترية قائلاً:
ليُبيّت صوتاً زَبَطْرِيّاً أَرَقَتْ له كَأسَ الكَرْى وَرَضْبَابَ الحُرَد العْرَبِ

فهو قد لبَى صِرَته وَدَعاءها نافضاً عَن عَينِهِ النَوم حَتَى يَنتقم لها، وَرَافضاً رَضْبَاب النَّفّاد الحَسان حَتَى يُسّرَد شَرِبِه مَعَا تَجْشَم مِن الأَهْوَالِ وَتَحل من الخَلْوَاتِ وَيَمْضى في تَحْتَذَه عَن المَرَكَة وَما كَان بِهَا مِن عِراك وَجِلال وَقتِل وَدماء سَالَتُ أَنْهَاراً، وَتَوَفَّى يَهْرُب مِن مَكَان إلى مَكَانٍ مِن أَكَة إلى أَكَةٍ، يُتِبِل النَجَةُ مِن أَسْد أَلَدْ. وَيَحْمِيم أَبُو تَمَام قَصِيدِهِ تِل مَلِحِمَته بِالْمَوْزُوَنة بِيِنْ يُوم عُمْرَة وَيْوَم بَدر، فَإِذَا كانُ الْيَوْمُ الْآخِر مَوْقَعًا فَاصلًا بِيِنْ يُوم عُرْفَة وَالإِسْلَامِ فَإِن يُوم عُمْرَة يَدُورُه مَوْقَعًا فَاصلًا بِيِنْ يُوم عُرْفَة وَالإِسْلَامِ فَإِن يُوم عُمْرَة يَدُورُه مَوْقَعًا فَاصلًا بِيِنْ يُوم عُرْفَة وَالإِسْلَامِ فَإِن يُوم عُمْرَة يَدُورُه مَوْقَعًا فَاصلًا بِيِنْ يُوم عُرْفَة وَالإِسْلَامِ فَإِن يُوم عُمْرَة يَدُورُه مَوْقَعًا فَاصلًا بِيِنْ يُوم عُرْفَة وَالإِسْلَامِ فَإِن يُوم عُمْرَة يَدُورُه مَوْقَعًا فَاصلًا بِيِنْ يُوم عُرْفَة وَالإِسْلَامِ فَإِن يُوم عُمْرَة يَدُورُه مَوْقَعًا فَاصلًا بِيِنْ يُوم عُرْفَة وَالإِسْلَامِ فَإِن يُوم عُمْرَة يَدُورُه مَوْقَعًا فَاصلًا بِيِنْ يُوم عُمْرَة يَدُورُه مَوْقَعًا فَاصلًا بِيِنْ يُوم عُمْرَة يَدُورُه مَوْقَعًا فَاصلًا بِيِنْ يُوم عُمْرَة يَدُورُه مَوْقَعًا. وَحَتَى الْآن لم نُعْرِض لِبَطُولَات الأَسْطُول العَرَبِ وَقَادَة الْذَّين آمَنُوا

شَوَاطِئ الشَّام وَمَصْرِ وَإِفْرِيقَة في العسَر العَبَاسِي، وَكَانَهَا الأَسْطُول لَا يِبَذِل بِخِفَاف الْبَحْر المُتوسِط، وَقد نُشِر أَلوِيَتِه، وَهُوَ تَأَذْرِي عَلَى هِذِه الْجَزِيرَة، وَتَأَذْرِي عَلَى تَثْلُث، وَمَاتَوَاقِف سَهِينَ مَائَنِي وَثَنيَّ عَشَرَة، حَتَى يُسِيرُ الْعَرَب عَلَى جَزِيرَة كَرِيْب وَتَسْخِر خَالِصة مِلْمُ وَبَعْضِهِ بِعَشَرَة عَشَرَة سَتَنُسَّلُ حَتَى عَشَرَة أَعْوَام مَتَعَافِية، وَفِي هَذِه الْآتِيَة كَانَ الأَسْطُول العَرَبِ الْعَامِي بَيْضَاً، وَقَدْ رَأَى قَائِدُهُ أَحْمَد بْن دِينَان بْن عِبَّاد اللَّه أَن يَتَجِه يَهْرُب بِبَيْضَة قَالَ يَلِّتَقى بالأسْطُول
الروى، والترق الأسطولان لستة مائتين وثلاثين وثلاثين للهجرة في أوائل
خلافة المتوكل، ولم يلبث الأسطول الروى أن دمر نهائياً وفر قائد هارباً.
ولم تسجل كتاباً تاريخياً هذا المعركة البحرية وما أبلي فيها ابن دينار
قائد البحر وإنما سجلها المؤرخون البيزنطيون، وإن البحرى خليج
الثناء حين سجل هذا المجد الحربي لابن دينار وأسطوله في إحدى مدادهه
له، وقد صوره يتقدم الأسطول ذات صباه في مركبه الميمن،
والأسطول يقوم بعرض بحري، وبعض الملحماء يعتلون أبراج السفن،
والخنجر يتأهبون للحرب وقد اصطفوا صفوفًا لثلاث الأوامر من الاستيام
أو عبارة أخرى من أمير البحر، ثم يأخذ البترى في وصف المعركة
يقول:
غدت على اليمين صبحة، إذا رأيت نجم، فوق علاته
و فوق الساطع للعظم المؤمر كوكب الردى من دارعين وخيص
ليقلع إلا عن شواء مقتر
ضراب كإيقاد اللظى المتوسر
سحاب صيف من جها ومضطر
إذا اختفت ترجيح توذ مجزٍ
تألف من أعباق وحشٍ منفر
يقوم أسطولاً كأسفيته
كأن ضريح البحر بين محاهم
تقارب من زحفيهم، فكانوا
فما رميت حتى أجلنت الحرب عن طالب مقطعة فيهم وهام مطر
على حين لانطعن يطرنه الصبا ولا أرض تلمؤ للصريع المقنع
وأوضح أن البحري في الأبيات الثلاثية الأولى يصور استعراض
ابن دينار لأسطوله وحركته البحرية وإعداده للمعركة الحاسمة
ويفضى في وصفها، فيقول إن جنود الأسطول العربي مدر بون على القتال
في البحر: الدارعين منهم وغير الدارعين، ودائمًا ينشطون في رشق قذائف
النار التي تخيل كل ما تمس إلى ما يشبه حمما مشوياً على طلاء سواد
القفار أو الدخان. وسرعان ما نشب المعركة بينهم وبين الروم صه
العثانين أو عبارة أخرى حمر اللحي، وقد صوروا عليهم قناداتهم
المرحة، والبحر يجري زجراً عود مجري أو عبارة أخرى زجراً بعيد يهد
بصريه. وقد تقارب الزحفان العربي والرومي بل التحاما التحاما وحوش
كاسرة متناقلة. وقيل إن ابن دينار مازال يشعل الحمية في قليب جنده
حتى محقا الروم حتى أجلت الحرب وتكشف عن طلباً أو اعتناق مقطعة
وربوس مطيري متناقلة. وهي معركة في البحر لا يرتفع فيها الغبار
كما يرتفع في معارك البر، ولا يترامي الصرعي فيها على الأرض بل
يعورون في المياه إلى غير ماء.

وتعضي إلى القرن الرابع الهجري ونتيже في بسف الدولة الحمداني
أمير حلب، وهو أعظم بطل عربي تألق نجمه في مهات الحروب الرومانية،
إذ تقول مجنوده إلى ما يشبه سدًا ضخماً يصد سوء الروم. بل لقد تقول
إلى ما يشبه صحراء عاتية تتحطم عليها غاراتهم وحملاتهم، بل إنه حول ديارهم وأوديهم إلى حراقت تسيل من تحت دماؤهم المسفوفة، وكأنما تجمدت في ضميرة البطولة العربية بكل أعجابها الحربية، وأحس المتني كأنما هو الأمل الذي ظل تمخضه العصور للعرب وظلوا يبحرن عنه طوال أيامهم ولياليهم، أو أن أحس كأنه منقذ أرسله العناية الإلهية ليرد عدوان المغبرين البيزنطيين في عصر خارت فيه قوى الخلافة العباسية ولم يعد لها حول ولا تمل ولا من القدرة شيء. فهيب هذا البطل يدود عن الحسي والدمار ويدفع عن الديار، بل لقد مضى يغير على البيزنطيين وينزل بهم هزائم ساحقة وهم يبولون ويندوبن ضارعين. ولم يكن له عون في هذا الحد الحربي الرائع سوى الرقة الصغيرة حلب إمازته وما حولها، ومع ذلك ظل يقيم أظهار قواد بيزنطة وجوشها الجرأة، وظلت سويفه وسيوف جنوده البسالة تسيل دماء البيزنطيين أهباراً. وكان طبيعيًا أن تملك ساحات حلب وأفني قصوره فيها بالشعراء الذين جاءوه من كل مكان ليشيدوا ببطولته وبطولة جنوده ولم يلبث المتني أن قدم عليه، وكان قد أعيا البحث عن بطل عربي يردد عن العرب ظل الحكام الأعاجم المتسولين على الخلافة في بغداد، ويدفع عنهم ما يتعرضون له من غوايل العدوان، وكأنما رأى في سيف الدولة وششب شابهه بالروم من يحقق له أحلامه في البطولة العربية المفقودة، وكان هو نفسه فارساً مقداماً، فأطال المقام عند البطل الحمداني تسعة سنوات طولاً، يراقه في معاركه، وعليه درعه وزرده، وبده سيفه، وفرسه يصلى ويلوح بعرفه، ويبعد معه بعد كل معركة.
وقد امتنأ قلب حمامة وبهجاء بالنصر، فنشده قصائده مصورًا بطولته ويطرأ حرية تموج بصليل السيف وحمى الخيول، كما تموج بالحفيظة والحقن على أعداء العربة البيزنطين. وهي ليست أنشدة ولا أنشدتهم إما هي مجمع كبيرة من أناشيد، بها الأسلاف بالسيف، نسب إلى بطلها المغار سيف الدولة، ولن نستطيع الوقوف عندها جميعًا، ولذلك ستكون بالوقوف عند واحدة منها، وهي التي تنظم في معركة حصن الحدث أحد المناذ إلى بلاد الروم، وكان البيزنطين قد خربوه لسنه تلتان وسبع وثلاثين حتى لا يكون شوكة في ظهورهم، فصمم سيف الدولة في سنة ثلاثة وثلاث وأربعين على إعادة بنائه، ووضع الأساس بيده، وبيده هو قائم على هذا البنا إلا القائد الروم ورداس فوكاس يرميه بجبش عداده خمسون ألفًا، ولم يكن مع سيف الدولة سوى بضع مئات من فرسانه، واختمت المعركة، وغلبت الفئة القليلة الفئة الكبيرة، بل لقد دمرت تدميرًا إذ سقط في الميدان ثلاثة آلاف من الروم، ووقع كثير من البطارقة أسرى وكان من سفك دمه ابن بنت برداس وصهره، أما هو ففر بجبله. وكان المتنبي مراقبًا لسيف الدولة، وأنجى في المعركة بلا حساً، حتى إذا انتهى معايدها المظفرة الرائعة وقف بين يدي سيف الدولة ينشد هذه القصيدة، وقد بلغ فيها الدروة في التعبير عن بطولة سيف الدولة وكأنه الشجعان وإحسان العرب العمق بالعداء المستمر بينهم وبين الروم يقول في فوايتها:
يكلف سيف الدولة الجيش همته
وقد عجزت عنه الجيش الخضارم
يفدى كأتم الطير عمرا سلاحه
نسور الملا أحداثها والقشاعم
وأما ضرها خلق بغير مخالب
وقد خلقت أسيافه والقوائم
هل الحادث الحمراء تعرف لونها
وتعلم أي الساقين الغمام
سقتها الغمام الغر قبل نزوله
فلما دنا منها سقتها الجماجم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت
من جفت القتلى عليها تماطم
والمنى يعجب من تكليف سيف الدولة لكتبه الصغيرة أن
تهببه بهمته في الحرب، وهي همة أعظم من أن تهيب بها الجيش
الضخمة، ومع ذلك فإن جيشه القليل يحقق دائمًا من الانتصارات
ما يبول ويروع، ويقول إن نسور الملا صغارها وقشاعمها أو
عظامها تغذية بأرواحها لما يخلف لها دائمًا في المعارك من الأشلاء
ويقول لو أنها خلدت بدون مخالب قوية تفرس بها صيدها من بقاع
الطير ماضرها ذلك، لأن راح سيف الدولة تبلغها ما تريد ويُقدّم
٧٤

لها ما تطلب من القوت والقوة. ويساء المتنبي هِل اللون الأحمر الذي كسا قلعة الحدث تعرف وتعرف مصدره من دماء الروم التي لطخت حواتها بُلوِّها الفاخر؟ وهل تعلم أي الساقين سقاها: الغماعم أم الجماجم؟

ويقول إن السحاب جادها قبل حُلُول سيف الدولة، فلما حل بها سقاهما من دماء الأعداء ما شافاهما بما كانوا أصابوها من غارات وجراح.

ويقول إنه كان بها ما يشبه الجنون، فأعادا سيف الدولة بِيام كثيرة من قلِّ الروم أذهبت عنها العلة، فسكنت وعاد إليها عقلها السليب.

ويأخذ في تصوير جيش الروم وعده وأسلحته وعده ونافذة زحفه مع زحف سيف الدولة وأصحابه، يقول:

أَتْوَكَ يُجَرِّون‏ الحَدِيد كَأَنَّمَ سَرَوَا بِجِيَادٍ ما لَهُ قُوَائِمٌ‏
إِذَا بَرَقُوا لم تُعْرَف البَيْض مِنْهُمُ ثِياهمُ من مِثلها والعمائم.

خميس بِشرْق الأَرض والغرب زحفه

وفي أُذُن الجزوررة منه زمازم,

تجمع فيه كل لَسْن وأُمَة فما تَبَتْه مِنْهُم العَمَّادَات إلا التَّراجَم.

فلله وقت ذُوب الخْش نازِرُه فلم يبق إلا الأصْرَام أو ضَبارٌ

تَقَطَّع مَالا يُقَطَع الْدُرْعَ والقَناَ، وَفَرْ من الأَبطال مَن لِإِصَادِم.

والغزوة بِصورة فرسان الروم بِقِلَبه ما يبَسِنه وتلبه خيلهم من الحديد والفوَلاذ، فعلى رؤوسهم الخوذ، وعلى أجسادهم الدروع.

وفي أيديهم الروس الضخمة، وعلى أخيل السروج وله الحديد المصدر، الذي لا تكاد تبين منه قوَّاته، وكل هذا الحديد يلمع تحت الشمس.
فلا يكاد الإنسان يميز بين سيفهم وما يلبسونه، إذ كل ذلك حديد يلمع ويرقق. ويقول إن خيهم أو جيشهم ملاء بكرته الآفاق شرقاً وغرباً حين تخذ يزحف للمعركة، كم ملاهما بعجيجه وضيجه حتى لكأنما زماهمه أو أصواته بلغت عنان السباه وارتفعت إلى أذن الجوزاء.

وهي أصوات أخلاق من البيزنطيين ومن وراءهم من الأوربيين أصوات مستعجفة متفاوتة فيما بينها فما يتفهم المتحدون منهم إلا مترجمن بنقلهم عنها. ويقول عجبًا: الله يوم هذه المعركة، فقد مما تمويه من بتوبر ما يسو النور أو الفروسية، وكأنه نار صدر التمويه والعش والخدد، إن يد وليم يثبت سوي الصدام أو السيف القاطع والضرب التهمة، أو الأسدة الشجاعة، أما السيف الكليل فقد تقطع وأما الجبان فقد رُي الأدباء.

ومشى المشتبه يصور سيف الدولة وسائطه في جحيم المعركة، وهو يشهد بقلب ثابت الانتصار العظيم وهزيمة العدو أمامه، وخيله تلحق به في ذرى الجبال طاعة فاتحة نافرة جثته وأشلاءه، يقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفّن الردى وهو نائم تمر بك الأبطال كأبقى هزيمة ووجهك ضاح وترك باسم ضمنت جناحيهم على القلب ضمة تموت الخواص تحتها والقوى يغيب بضرب أذى الهامات والنصر غائب وصار إلى اللدبات والنصر قاده.
حَفِّرْتَ الرُّدْمُنِيَّاتَ حَتَى طَرَحَتُها
وَكَانَ السَّيْفُ لِلرَّحِمَ شَانِمًا
وَمِن طَلِبُ الْفَتَحِ الْجَلِيلِ فَإِذَا مَفَاتِيحُ البَيْضِ الخَفَافِ الصَّوامِ
نَشَرُّوهُمُ فُوقَ الأَحْيَابَ تَشْرَةً كَمَا نَشَرَتُ فِوقَ الْعُروِسِ الدِّراهمِ
تَدُوسُ بُكَ الحَيْلِ الْوَكْرُ عَلَى المَنْرٍ
وَقَدْ كَرَتَتُ حَوِلَ الوُكَرِ المَطَاعِمِ

تَظَنُّ الْقُرَائِ الفَتُّ الْقُرَائِيَّةٌ أَنَّكَ زِيَّرَتِها بِأَمَامَّا وَقَلَّ الْعَيْنِ الصَّلاذِمِ
إِذَا زَلَقْتُ مَشْيَتِها بِبَطْنُهَا كَمَا كَتَبَسْتَهُ فِي الصَّعيدِ الأَراَقِمِ
وَهُوَ تَصْوِيرٌ رَايْعٌ لِبِطُوْلة سَيْفِ الدُّوْلَةِ فَأَنَا يُتْلَكُ أَعْمَلُ مَعَانُ
البَسَالةِ الْحَرَبِيَّةِ وَأَرْخُوْهَا ، فَقَدْ مَثَّلْتُ المَتْنِيِّ لَيْابًا الْمَوتِ وَلَا يَرَهُهُ فِي
أَشْدَ الْمَوَاقِفِ وَأَخْطَرُهَا تَعْرُضُهُ لَهُ ، وَقَالَ إِنَّهُ دَأْبًا يَقَتُحُ مَوَاضِعَهُ مَخَاطِرًا
بِرَوْحِهِ ، غَيْرَ أَنَّ الْمَوتِ يُبَرِّضُ عَنَّهُ حَتَّى لَكُنَّهُ لَا يَبْصِرَهُ ، بَلْ كَأَنْهُ
يُغَفَّلُ عَنْهُ بَنِو هُمَانَ ، مَعَ أَنَّهُ فِي جَفْنِهِ وَهُوَ مَهْجُوبٌ بِمَهْدِقِ بَشْخِهِ ، لَكِنَّهُ
مَا يُزْجُ بِنَفْسِهِ فِي مَعَارِكِ الْقَتْلِ وَمَعَاطِهِ ، وَيَقُولُ الْمَتْنِيِّ إِنَّهُ بَلْ مِنْ جَلَالَةِ
سَيْفِ الدُّوْلَةِ فِي المَأْرَقِ المَتَلاَمِحِ لِهذِهِ الْمَعَرَكَةِ المَخْطَرَةِ أَنَّ كَانَ يُمَرَ بِهِ
أَبْطَالُ الْرُّومِ جُرَحُوْنَ مَهْزُومِيْنَ مَدْحُوْرِيْنَ رَوْجِهِ لَا يَكْلَمُهُ وَلَا يُبِسُّ ،
بَلْ يسْبِحُ وَيُبِسُ وَأَقْبَلُ بِالنَّهْرِ. وَيَصْفُ قَدْرَتِهِ الْحَرَبِيَّةِ ، فَيَقُولُ:
إِنَّهُ لَفَت جَناحِي جَيْشِ الْرُّومِ عَلَى قَبْلِهَ لَغَةً مَنْكَرَةً شَدَّةً فِيَّ عَلَيْهِمْ شَدَّةً
صَادِقًةً ، فَإِذَا المَتَقَدُّمُونَ مَنْهُ وَالْمَتَأَخَّرُونَ يُذْرُونَ صَرْعَيْهِ وَقَدْ صَوِّرُوهُمِ
بالخوافِ والقوادِمِ في جناحي الطائرِ وهي الريشات القصار والطويل كأنه لم يبق منهم باقية. ويقول إنه كان يطماع بهضرب لا يصيب الرؤوس فحسب، بل يستقر في النحور، وكأنما كان النصر قد ظل غيابه وأهلته ثابتها. ويستمر في وصف بطلة سيف الدولة: فيقول:

إنه طرح الرمح الرديني فلم يحارب بها، وحرب بالسيف الماضي التي تعلوها بالطن القريب الميت، مما جعل السيف تشعر بالاستعجال على الرمح وتناذا بالتصغير والتهور، ويقول حقاً أن السيف الخفيفة القاطعة هي التي تفتح أقفطل النصر المغلفة. وكأنها تجسدت في نفس المنتى فرحته وفروحة سيف الدولة وفرسانه بهذا النصر الهائل، فإذا هو يتصور تنائر جثث الروم وأشلاءهم على جبل الأحيدب يحوار مدينة الحدث عرساً لذلك المجد الحربي وزفافاً، وما الأشلاء والجثث إلا الدراجات التي تعود العرب في أعراسهم أن يتنوها على العروض فرحين مبتهجين.

ويقول إن خيول سيف الدولة كانت تصعد وراء المهزومين في ذرى الجبال تقتل فيهم، حيث وكر النسور، وكأنما تهدي إليها طعاماً وزادة لا ينفد، حتى تلتئم فرائشها الصغيرة أنك زرتها بأهميتها، مما تقدم إليها من أقواتها، وأنت إذا زرتها وجميع الكرم الذي القوية الصلبة التي تدرت على صعود الجبال، حتى إذا تضعب السير عليها زحفت على بطنها كما تزحف الأفاعي في المرتفعات. وعلى هذا النحو كان المنتى يتغنى ببطلة سيف الدولة هذا الغناء الملهم الذي يشعر الحماسة في نفس كل عربي، وهو غناء صدر عن قلب شاعر عربي عاش بمجد البطولة العربية حتى إذا رآها مصورة في شخص سيف الدولة وما ينزل
بالرغم من الموت الفاتك أخذ ينزل تلك الأناشيد مذبًياً فيها كل ما ضم عليه جناحه من قوة وكل ما رآه في سيف الدولة من شجاعة وبأصال شديد، وكأنما وهب نفسه لحرب الروم، فقد ظل يجالدهم ويصارعهم وينزل بهم القتال المدمر، والإرادة المذكورة: لا يصرف عن ذلك شيء من مشتهيات الدنيا ومتعها، فتاعه ومشتَّهاء جهاد الروم وما يتحمله في ذلك من العناء الشاق والجهد العنيف. ويحكم عليه أنه لم يكن يابه مجلس الأنس كعادة الحكام في عصره، ولا تشغله الدائم بتدبير الجيش وممارسة الحرب وأنه دعا ذات ليلة بعض أقربائه للالتمس إلى الغناء من بعض الغناءن البغداديين المشهورين الذين أتوا إلى دحله حاضرته، فقال لداعيه: أنا مشغول بقمع الحوافر عن الزاهرة وهي كلمة تلخص بطولته وأنه عاش كما قال المتني آنفاً يقف نفسه أمام الموت وقد غرفته بملته عليه جهنمه غير عابئ به، وكأنما قهره وغلبه وفرض عليه سلطانه، فستله على أعدائه. وأما إن غزا الروم أربعين غزوة، وقدر له أن يموت على فراشته حتى أنفه، وقد أوصى بأن يؤتي خده في قبره على لبنة جمعها مما علق ببياثه ودروعه وسلاحه من غبار غزواته للروم، لبنة طاهرة تشهد في حله على بلائه في الجهاد وأنه لم تنكن له راية، ولا ظلت عليه غاية.

ليس المتنبي وحده الذي نظم الأناشيد المدوية في بطولة سيف الدولة، فقد وفد عليه أكثر الشعراء التأبين في الشام والعراق يتغنين بسالته من مثل الأواهاء الدمشقي والسري الرازي والناشئ والرازي والخالدبة، وأنبه من هؤلاء جميعًا ابن عمه أبو فراس الحمداني الناشئ في حجته.
وزوج أخته ورفقته في حروبه، وكان فارساً لا يجارى كما كان شاعراً لا بيارى. حدث أن أغرار الروم على حلب في سنة ثمانية وستة وخمسين غارة سبع شواه، وانسلت منهم كتيبة أو كتائب إلى منبع في الطريق إلى حاضرة سيف الدولة، وكان يتولاها أبو فراس فدافع دفاع الأبطال إلى أن أُقنع بالجراح وأسر الروم، وأنخرثوا إلى خرشة، ثم نقلوه إلى القسطنطينية، وتبقي في هذا الأسر نحو أربع سنوات، وهو يكتب سيف الدولة لسير في فئاته حتى إذا كانت سنة ثمانية وخمسين خرج ثلاثة آلاف أسير إلى خرشة، افتدح جميعاً ابن عمه. ولم أشع كثيرة نظمها في هذا الأسر تسمى بالروموسية، وهي تتبяв بالحنين إلى أمه وأهله ووطنه، كما تفياض بالعلم والحماسة والقوة وكانه صورة تفتّحت عليها الأحداث والطروح مهما تكن مريرة، ومهم تكن غصبة وشيئ في الخلق، وربما كانت خير قصيدت تصور هذه البطولة النفسية رايتها، وفيها يقول:

وإنني لجزار لكل كتيبة معذبة ألا يخل بها النصر أسرت وما صحبي بعزل لدى الوحي ولا فسرس مهر ولا ربي غمر ولكن إذ أوضح القضاء على أمرى فليس له ذر يقيق ولا بحر يمنون أن خلونا ثيابنا وإنا على ثياب من دمائم حمر وقائم سبين فيه اندق نضحة وأعقاب منها فيهم خطم الصدر سيد كرى قومي إذا جددتهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر.
وانحن أناس لا توسيط. عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر نهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسناء لم يغلفها المهر وأبو فرس يصور نفسه قائدًا مقدماً يقود المحالف الجرارة إلى النصر ويدافع حميم عن أسره، فقد أسره العدو بنته، وإنها لم تقم شجعان يسبلون في القتال والنزال، وهو نفسه بطل، بل فارس له فرسه القارح، وله نباهته بين الفرسان، فهو ليس غمراً مغمرًا أو مجهولاً، بل هو فارس مشهور، ولكن لا دافع للقضاء النازل. وليلت إلى الروم، وهم يمرون عليه بأبنهم لم يخلعوا عنه ثيابه إكراماً له، فيقول وقد أخذته الأفظعة والعرة إن ما على ثياب من حمرة تلطفها إما هي خضاب من دمائهم، وكم انفتحت في قلوبهم وأجسادهم ورؤسهم نصول سيوفه، وكم تحطمته في صدورهم صدور راحمة. ويقول إن قومه سيذكره بل سيف تقوده حين ينزلون الروم ويحمي الوطن، على نحو ما يفتقد الناس البدر في الليلة الظلماء. ويقول إننا أناس يتعجنا الشعور بالكرامة والاعتداد بالنفس، إلا الصدر إلا القبر، وإننا لنبدل نفوسنا في سبيل المجاد راضين شأننا شأن من يخطب الحسناء فإنه يبذل في سبيلها أي مهر وأي صدق، وفرق بعيد بين بذل المال وبذل الروح الغالية.

وكانت هناك بطولات أخرى في المغرب العربي: في إفريقية والأندلس، فقد وضع العرب أقدامهم هناكوم في صراع مع أعدائهم، وأحسوا أنه لابد لهم من أساطيل تحمي شواطئهم. ولا نكاد نمضى في
القرن الرابع حتى نجد عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس يعي ببناء أسطول ضخم، ونافسه في ذلك الفاطميين منذ ظهروا في المهدية بالقرب من القيروان بتونس، فقد مضوا يعنون ببناء أسطول لهم وإعداده حتى لا يأخذهم الروم على غرة، وكان هذا الأسطول أثر كبير في فرض سلطانهم على المغرب الإفريقي وأقام في امتداد هذا السلطان إلى مصر ثانياً. ويتولى الخلافة المعر قاتج مصر ومؤسس القاهرة، ويقدم عليه من قرطبة ابن هاني الأندلسي وهو لا يزال في المهدية، فيستخلصه لنفسه، ويصبح شاعره الذي يشهد بكل أعماله، ويرى أسطوله:

فينظم قصيدة طويلة في وصفه، وفيها يقول:

أما والجوارات المنشأتي التي سرت
لقد ظاهرها عُدَة وعِليهُ
ومن راع ملك الروم إلا اطلاعها تنشر أعلام لها وتنوّد
عليها غمام مكفر صبيحة له بارقات جمّة ورعود
من القادحات النار تضرم للصلاب
فليس لها يوم اللقاء خمود
إذا زورت غيظا تزامت بمارج
كما شَبَّ من نار الجحم وقود
فأفاوهن الحاميات صواعق وأنفاسهن الزافرات حديد
لها شعل فوق النمار كأنها
دماء تلقتها ملاحف سود.
ليس لها إلا الرياح أُعينَةٌ وليس لها إلا الحجاب كِديمٌ
ووافق أن ابن هانئ يفتح أبوابه مسفيتا بسنف هذا الأسطول الذي تغمرها الهواء والجلالة قائلا إن عليها إعارة ضخمة من السلاح واستبداً ضخماً من الجنود، ويقول إنها بكرتها وموكبها الرائع في البحر المتوسط وهي تنتشر أعلامها وقلاعها وسحب دخانها وبرقها اللامع ولاعوها القاصفة قد ألت القفز في قلب ملك الروم، وإنها لندافعات النار الحامية التي تبقى الوجه والثاني تظل مشتعلة أعظم أشتعال يوم اللقاء، قاذفة بالحمم والشعل لا تفت، وكأنما يدخلها غيظ وحشث ملتهب حتى لكيها نار الحجم التي تغل كالمهل، وإنها لتلفظ النار صواعق ترسلها على العدو حتى تأتي عليه، وإن أنفسها لمقام ملتهب من حديد، وإن شعلها المقدرة تتلاصق على المياه وكأنما دماء تلاصق على ملاحف سود ملاحف الماء في الليل الدافئ، وإنها لتعدو سرعة، وكأنها خيل تبدو على أرض صلبية، وبأيدي فرسانها أعنفها، يحترشها على العد والسريع، ولا أعنة ولا خيل ولا أرض صلبية أو كديم، إنما هي الرياح تدفعها هذا الدفع الحليث.
في الحروب الصليبية والغولية

لا نكاد نبلغ أواخر القرن الخامس الهجري حتى تدوم في أوربا الغربية صيحات البابا إيربان الثاني بإشعال الحروب الصليبية لاستخلاص الديار المقدسة من أيدي المسلمين، وترددت مع صيحاته صيحات القسس في كل مكان وانعقد جميع كهوف الفنادق المشهورة فيه محت للحروب الفرات. لكل من يحمل الصليب وينبه لتخليص بيت المقدس واستجاب الأوربيون من كل قطر من شلالي أوربا إلى جنوبها، من الدارفاك إلى إيطاليا، مليئ هذا الصيحات للاشتراك في الحروب الصليبية يتقدمهم كثير من الأمراء مثل جودفري دوق اللورين الأدنى وأخوه بلدوين وبوهند النورماندي الإيطالي وابن أخته تانكرد ورموند كونت تولوز بفرنسا، وأخذت هذه السبيل تتجرد إلى بيزنطة مكونة نحو مائة ألف مقاتل.

ويبني أوربا تتجمع هذا التجمع الضخم إذا البلاد العربية منقسمة على نفسها، وإذا هي قد بلغت مدى بعيداً من الصفح والانحلال، وكان أكثر الشاطئ الضائي بعيد الناظمين حكام مصر، وكانت دولتهم قد أخذت ترتدي في تدهور خطير، وكان قسم كبير من ديار الشام يتبع السلاجقة حكام العراق وإيران، وكانوا قد اقتحموا من خراسان منذ أكثر من قرون وهموا سلطانهم على آسيا الصغرى.
ولم يلحظوا أن استحدثوا نظام الأئمته، وهو أن يكون مع كل حاكم منهم لبلد أتابك أو بعبارة أخرى قائد يدبر أمر بلده، وسرعان ما ازداد تفوّض هؤلاء الأئمته وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين، وبذلك تفككت أوصال الدولة السلجوقية الضخمة وتفتتت قوّاتها العظيمة.

فلما جاء الصلبيون بجميعهم الحاشدة لم يجدوا أمامهم قوات تبطش بهم فل السلطنة مختلفين بكيانهم القوى القديم الذي أدركه بينها ودفعها من آسيا إلى أوروبا، وللفاطميين محتفظون بشيء من قوّتهم القديمة يلقون به هذا الرواء الصليبيون. ونزل الصليبيون آسيا الصغرى وأخذوا يستولون على حصون السلاجقدين دون مقاومة تذكر، وتفتت بلدويون إلى حوض الفرات الأوسط، واستولى على الرها وسارت بقيّة السيل إلى الشام فاستولى على أنطاكية بعد مذبحة عظيمة. وتوالت مذابح الأيدي الآثمة في البلدان والقصور حتى طرابلس، ولجيج السيل إلى بيت المقدس وكان بيد مصر، وجاهذة الحامية وأهلها جهادًا مستميتًا، حتى لم يبق في القوّة منزوعًا، ودخلها جنود مصر وحنوده، وسرعان ما أصبح للصليبيين أربع إمارات: الرها بيد بلادنا وأنطاكية بيد طندر (تاركرود) وطرابلس بيد رومان وأبي سفيان بيد جنود موادًا آخرها بيد الصلبيين، ففتح عكا وبيروت وصيدا. ولم يق لصلبي في الشام أنه يغزو صور وعسلان، وبعد سنوات سقطت صور. وظلت مصر وأتابكة الشام يناروشهم، ولم تستطع قواهم الهيمنة أن ترد السيل إلى قاراو، وبلغت القلب الحاجر. وبينما ظل السماوتباء المنطقة إذا أتابك عظم من أتابكة السلاجقة هو عداد الذين زنكي يبنه.
إلى أن الداء يكمن في تقطع البلدان المجاورة للصليبيين شيئاًً، وأنه لن تستأنف شأفهم إلا إذا تجمعت قوى تلك البلدان في قبضة قائد حازم، تصدّى لهم ضربات قاصمة. ولم يثبت أن ركز لواء سلطانه على الموصل ثم بسطه على كثير من مدن الشام مثل حلب وحماة وحمص وبعلبك ودمشق، وأخذ بكيل الصليبيين ضربات قاضية مستمراً على كثير من الحصون، حتى إذا كانت سنة خمسة وسبع وثلاثين استولى على مدينة الرها بعد قاتل مرير. وبذلك معا عار هذه الإمارة إلى أقامتها الصليبيون على الفرات، وكان لذلك رئة فرح شمت جميع المسلمين يتقدمهم الشعراء الذين أخذوا يشيدون بهذا النصر الذين ملوحين بأيديهم في وجه الصليبيين، مذريين ومتوعدين على شاكلة قول شاعر ابن القيسري:

هو السيف لا يغنيك إلا إجلاده، وهل طُوق الأُمَلِ لا نجادُه
سمع قبائل الإسلام فخراً بطوله.
ولم يكن يسهو الدين لولا عمده فياظفَراً عم البلاد صلاحه. بين كان قدعم البلاد فسدها غداة كان الهم في كل قونس كماؤم نبت بالسيف حصاده فلا مطلَّق إلا ودُوَّد وثاقة ولا موثق إلا وحَّل صفاده ولا منبر إلا ترَّبح عودة ولا مصحف إلا أثار امتداده فقل الملوك الكفر تسِلم بعدها ممالكها لأن البلاد بلاده.
كذا عن طريق الصحيح فطُلبته اللهُ
فيا طالما فكان الظلم امتداده
وابن القيصرى يشيد بالسيف رمز القوة الذي لا يحى البلاد ولا
يصوبها سواء؛ وقد أعزى يوم الراقاء قبلة الدين الحنيف وملأها خيلا
ورتبتها بفضل حامله عماد الدين زنكي الذي أعلى شأن الإسلام وجعله بما
حقن من ظفر ما طغيان الصليبيين على الرفعت، وهو نحو لم يَم
بإزعاق نفسهم وقطع رؤوسهم وحصادها حتى لكثاما كانت أكما
نبات أينع وقفتها. وتكاثرت أسرى الصليبيين وأخذنها الأغلال والقيود
في حين فكت القيود والأغلال عن كنا كانوا في سجنهم من المسلمين
وإنه ليهدد ملوك الصليبيين بأن ما حل بالرها سيحل بهم، فيصبحون بين
قديل وأسرى، وخبير لم أن يلقوا عن يد مستسلمين رادين البلاد إلى أنهم
ارتداد الدار إلى صاحبها ومالكها، وإلا فسيحقي بهم ما حاكم بإخوانهم
في الرا، وإنஅلبيب بالظلم أن ينحصر عن تلك البلاد وينكشف عن
سفوحها وودانها. حتى يثير عليها أضواء الصباح البهيج. وبين عماد الدين
جاد في حرب الصليبيين إذا يد آتى تحدت إليه في الظلم لسنة خسارة
واحدة وأربعين، ويبلغ الكتاب أجعله. ويعقسم ابنه: غازي ونور الدين
إمارة، ويستقل غازي بالمَوَّل، ويستقل نور الدين جبل ويقع
عليه عباءة جهاد الصليبيين، يعاود جوسلين صاحب الرها القديم
الحلم جددها يفدهم نور الدين، وتأخذ في الاستيلاء على
كثير من الحصون، ويجز صاحب أنطاكية جيشا جرازا من الصليبيين
خزمه، وتدور عليه وعلى جيشه الدوائر ويسقط في الميدان ضربا، وتسلل دماء الباغين أنهاراً، ويعتال تكبير المسلمين وتقليلهم. ويستلم ابن القسيسني باباً ذي عامل السالفة في معركة عورية، منشأً قصيدة مثناه، يقول في تضاعيفه:

هذى العزائم لا ما تدأى القلوب
وذى المكارم لا ما قالت الكتب
غبست الدنيا حتى لم يفتك ضا
وكان دين الهدى مرضاه الغضب
والنجل كالرجل هثالاً وليس له
سوى القرى وأيام فوقها سحب
فانضم إلى المسجد الأقصى بدى لجب
يوليك أقصى الى فالقدس مرتفع
وأيند ما لوجه في تهير ساحله
وإذا أنت بحور لجه لجب
هو يشيد بعوالم نور الدين حين نكست العزائم والهم من حوله
أما هو فقد مضى يحكم جيوش الصليبين، بطلاً من أبطال الجلاد.
الجاهد، وقد أنزل بالروم صاعقة رجف لها فؤاد رومية دار بابوا منهم الذين
أغورهم على تلك الحرب الشعواء وما يسفك فيها من دماء. ويقول إن
نور الدين غضب للدين الحنفي غضبة ضارية، فإذا خيله ملا سحابات
الحرب، والبل يهلل من سحب الأقواس كأنه مطر مهمر، ويبين
بنور الدين أن يخلص المسجد الأقصى من أيدي الصليبيين وأن يدفع
بأمواج جيشه لتطهيره من أدرانهم، وقد أخذ يبدو العيان أنه المنقذ المرموق
لتطهير البلاد من شرهم المستمر.

وفي هذه الأثناء قدمت الحملة الصليبية الثانية ومعها المملك كونراد
الألماني و لويس السابع الفرنسي، وقد مزق السلاجقة جيش كونراد
في آسيا الصغرى فتفكرو جيش لويس السابع ووصل مع فلول جيشهما
إلى بيت المقدس، ثم ارتحل إلى غير مأث. ومضى نور الدين يشن
الغارات على الصليبيين الشماليين فائحآ القلاع والخصون، وأذعت له
دمشق بالطاعة. وكانت عينه مصوابة نحو مصر وخاصة بعد أن استولى
الصليبيون على آخر بلد لها بالشام: عقلان، وبعد أن ظهرت منهم
نوايا ل بغزوا، وكان قد استقر في نفسه أن تتوحد كل البلدان العربية
الخليفة بها حتى يطوفوا شملا وشرقًا وجنوبا. ولم يلبث ضرغم
وشاور أن اقتلا في القاهرة على الوزارة وفرع إليه شاور مستنجلًا،
فأتجه بحملة على رأسها أسد الدين شيركو وابن أخيه صلاح الدين
وتتطور الأمور، ونتبهج لمدة خيانة شاور واستعانته بالصليبيين، ويدهل ل
مصر وينقذنها منهم. ويقتل شاور، ويتول شيركو الوزارة شهورًا،
ويتعفي في خلفه صلاح الدين، وسرعان ما ينتفي الخليفة الفاطمي العاضد،
فينقل صلاح الدين الخلافة من النافعيين إلى العباسيين. وتصبح وحدة البلاد العربية المحيطة بالصليبيين حقيقة ماثلة. ولا يلبث نور الدين أن يبدي نداءه ربه سنة خمسين وتسعة وستين فيحمل العبء صلاح الدين ويعد للبلاد الشامية والمصرية وحدتها. وأخذ ينزل ضرياتيه بالصليبيين، وما تواقي سنة خمسين وثلاث وثمانين حتى يشدد الخناق عليهم فتسرق قلاعهم وحصونهم بيديه واحدة في إثر أخرى. وتلتقي إحدى سراياه في شرق حينا بجماعة من الداوية والإستبارة الذين نذروا أنفسهم حرب المسلمين، وتنصرون عليهم السرية انتصاراً جماهراً يلقى فيه قائد الاستبارة حتفه، ويستولى صلاح الدين على مدينة طبرية، ولا يلبث أن يلتقي بجميع الصليبيين في تل حطين، ويلتح القتال ويحى الوتيس. وحال الليل بين العسكريين حتى إذا كان اليوم الثاني حمل المسلمون وصاحوا صيحة رجل واحد: الله أكبر، وألقي الله الرعب في قلوب الصليبيين، وقتلت منهم مقتلة عظيمة. وأحاط المسلمون بهم من كل جانب يقتلون ويسرون، وأخذ الصليب الأخضر: صلب الصليبي. وكان فتحاً عظيماً هلك فيه جمهور هذا الجيش الصليبي الضخم ووقع في الأسر قادته وزعاؤه: جاي لوزيكان صاحب بيت المقدس وأخوه أميرك وجبارم مقدم الداوية وهدير صاحب تنين وريشاند صاحب الكرك والشوبك. وبلغ من كثرة الأسرى والقتل أنه من كان يشاهد القتال يظن أنه ليس وراءهم أسرى، ومن كان يشاهد الأسرى يظن أنه ليس وراءه قتلى. وبلغ من كثرة الأسرى أن كان الواحد منهم يباع بثلاثة دنانير. ليجعل عبداً ممولاً. ولم يكن هم صلاح الدين إلا يرنالد
صاحب الكرك والشوبك إذ كان قد صنع أسطولاً في أيلة (العقبة) لغزو مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقاد ينجذع عزمه إلا أنه بائته في البحر الأحمر أسطول مصري قضى على أسطوله. وكان قد وقع صحله مع صلاح الدين ومر به جماعة من المصريين فغدروا بهم وقتلهم. ولذلك كان أهر صلاح الدين دمه وطعنه نفسه طعنة مصممة. واستولى صلاح الدين على جبل نابلس وتيسارية وحماها وصيدا وينوتر وبيت جبريل (بدر سبع) ولم يبق في كل هذه الأنهار سوى الكرك والشوبك وصرى. وحف صلاح الدين على بيت المقدس، وراها بالمجنحات وضيق على من بها من الصليبيين حتى استسلموا راغمين في شهر رجب سنة خمسة وثلاث وثمانين، ودخل صلاح الدين يجيش إلى المدينة بين الدهل والتكبير والضجيج بالدعاء. ولعل فتحاً لم يظهر من الأدب تهله وشعره، بما ظفر به هذا الفتح عند حروب سيف الدولة المعتصم بالروم، إذ كان الصليبيون قد استولوا على القدس منذ خمسة عشر سنة واستيوا الناس من عودته، فلما عاد لهم شعرها شعوراً عظيماً بأن صلاح الدين وجيشه ردوا إليهم فردوسهم الفقدون، وجاءوا من كل حقد إلى صلاح الدين يتعنون بنصره وبلاه وما فتح الله على يديه وأيده جيشه في حذفن ثم في القدس الشريف، وعماد الأصباهي سيناء رائعة أنشده صلاح الدين يذكر فيها هذا الفتح الحليم، وفيها يقول:

حبطت على حطين قدر ملوكهم
ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا
بوaquaa رجت بها الأرض جيشهم
دماراً كما بُشَت جبالهم بُسًا
بطين ذئاب الأرض صارت قبورهم
ولم ترض أرض أن تكون لهم رمٌّسا
سبيا بلاد الله مملوكة لها
وقد نشبت بُحْسا وقد عُرِضت نَحْسا
يطاف بها الأسواق لا راغب لها
لكثيرها كم كثرة توجب الوكُسا
والعماض يصور ما نزل بأمراء الصليبيين من ذل وهوان في يوم حنينٍ
وكيف مُرْقَت جموعهم كل ممزق، وزُلزال جيشهم زلزالاً اشديداً، بل لكانوا فتّنت جبالهم تفتتٌاً، فقد ت사항ت جَبَالهم وأشلاءهم وأصبحت مأدبة كبيرة للذئاب، وكأنما لم ترض أرض أن ينزلها ثراها وحَّط لم قبور فيها. وقد تكارثت سباهاهم، حتى ليعرضها النحاسون بين بِخس لم يسبق له مِثْل، وإنهم ليطوفون بها الأسواق والناس معرضون عنها لمثير كثرة من شأنها أن توجب الوكسة والكساد. ويقول ابن سناء
المُلك شاعر: مصر لعهد صلاح الدين مهتناً والبهجة تملأ صدره:
قامت في ظلمة الكريهة كالبند ر سناء والنور يسطع وَهَنَا
لم تلاق الجيوش منهم ولك يُنّك لاقينها بلاداً وَئِنْنا
وصيدتهم بحلقة صيد تجمع الليث والغزال الأغنا
وجرت منهم الدماء بحارةً فجرت فوقها الجزائر سفنا
وحوالى الأسر كل ملك يظن الله يقينه وملكه ليس يقينه
وبعثت عراس الملك تجلل وثرى الأملاء منه تجلى
قد ملكت البلاد شرقاً وغرباً وحويت الآفاق سهلاً وحزننا
وأين سناء الملك يسهم الأدباء بأن صالح الدين يبل من بطولته
وشجعته أن ترى وجهه مثلاً بالنصر مستبشراً كأنه القدر يطلع في
دجنة الظلام، وهو يتزول ضرائه المتلاحم لاعلى جيوش الصليبيين
فحسب، بل على مدنهم وحورهم، فإذا هي تفتح له أبوابها
ويتصوره وفي بده أسراهم من الشجعان والنساء كأنه صائد ماهر يصيدهم
بشباك، ويتعورون فيها لا يستطيعون فكاكاً ولا خلاصاً. أما دماء
قتلاهم فقد استحلت بحارةً وأنهاراً تعلو فيها جثثهم وكأنها جزائر
وسفن متحركة، وقد استسلم ملوكهم خاسين ملغورين، ولم يغن
ملكهم عين شهداً. وأقبلت على صالح الدين بلادن الشام تهادى إليه
وكانوا عرايس في جبلة الفرح البحيج، وإن ثار الأملاء لتلتقط
منها وتنقتف اقطافاً، وإن صالح الدين خليق ما ملك من شرق البلاد
وجربها وحورها وسهوها، ملكاً تصفح له البلاد طرياً وفرحاً، ويقول
الحسن الجويني البغدادي نجد مصر:

هذا الفتح فتوح الأنبياء وما
له سوى الشكر بالأفعال آثام.
أصبحت ملوك الفرنج الصيد في يدو
صياداً وما ضعفوا يوماً وما هانوا
تسعون عاماً بلاد الله تصرف وا
الإسلام أنصاره صم وعميان
للناصر أذُرت هذا الفتح وما
سمته لهم هم الآلakah مذ كانوا
لو أن هذا الفتح في عصر النبي لقد
نزلت فيه آيات وقرآن
فأله يبقيك للإسلام تحرسه
من أن يضام ويلقي وهو حيران
والقصيدة كلها إشادة بالفتح وصلالة الدين على هذا النط ،
وهو يقول إن هذا الفتح خليق بأن يكون كنفحة الأنبياء اللمهين ،
وإن النابع عليه ليعلو على الأقوال والألفاظ ، وإنه خليق بأن يدفع إلى
أفعال عظيمة تماثله ، ويقول إنه أسر ملوك الفرنج العترين ، الذين طاما
سمحوا بشعاعهم حتى النروا به ، فإذا هو يصف بهم عصفاً شديداً:
بعد أن ظلوا سادرين في عتهم تسعين عاماً ، والقدس وغيرها من
القلاع والحصن تصرف وتطغى ولا مغني ولا ضمير ، ويقول إن
هذه الفتح تجاهها أذى الدنيا لصلاح الدين ، ولم يكن ملك ولا أمير
قبله تتطاول إليها همته ، ولو أن فتح القدس حدث في عصر الرسالة
لنزلت فيه آيات قرآنية تشيد به وتعججه كمجدًاءً عظيماً، ويدعو الله أن يقيه للإسلام حارساً وحماً، لدمن أن يلحقه أي ضيم أو هوا.

ومني صلاح الدين في جهاده فاستسلم له الكرك والشوملك، ولم يبق للصليبين سوى صور وطرابلس وأنطاكية. في هذه الأثناء كان البابا يواصل استصرخاه، فتكونت الحملة الصليبية الثالثة بقيادة الملك فردريك الألمان، وفيليب ملك فرنسا، وريتشارد ملك إنجلترا. واتخذ فردريك طريق البر إلى بيزنطة وزنل آسيا الصغرى بجميعه، وبيته هو يعبر نهرًا فيما سابقاً ابتلعه الم، وتفشنت الأوبئة فيما معه، وقدمت منهم فلول إلى إنطاكية ثم طرابلس. واتخذ فلوب وريتشارد طريق البحر المتوسط وزنلا في صور، ويشركان في حصار عكا، ويعود إلى أيدي الصليبيين ثانية كما تعود حيناً ويفاك، ورأى ريتشارد أن الاستيلاء على بيت المقدس الذي جاءت من أجله الحملة أضائت أحلام، فطلب من صلاح الدين الصلح ووضع أوراز الحرب لمدة ثلاث سنوات، ولم ير صلاح الدين دفاً في ذلك إعداداً لمعركة فاصلة يقضى فيها على الصليبيين فضاء مبرماً، ولم يثبت ريتشارد، وكان قد سبق فلوب، أن رحل عن البلاد إلى غير رجعة. وما هي إلا أشهر معدودة حتى يلي صلاح الدين، وكان بدمشق، دعاً له في شهر صفر لسنة خمساً وتسع وثمانين، وصلي عليه الناس أرسالاً، وهم يكسبون بدموع غزاز. وكان قد وسع دولته الواسعة بين أبنائه وعمهم العادل، وأخذ العدل يعمل على إعادة توحيدها ثانية، ولا نصل إلى سنة 596، حتى تعود إليها وحدتها تحت لواءه، غير أنه عاد قسمها بين أولاده.
إذ جعل مصر لابنه الكامل محمد دمشق والديار الشامية لابنه المعظم عيسى، أما البلاد الشرقية حتى نهر الفرات فجعلها لابنه الأشرف موسى، وبذلك الملك هو وأبناؤه البلاد ودانت لهم العبد. وخفت حدة الحروب الصليبية، إذ تجولت إلى مناوشات إلا قليلا، وجاءت في أثناء ذلك إمدادات من أوربا ولكنها لم تصنع شيئاً، حتى إذا كانت سنة سياقة وخمس عشرة أعد الصليبيون، يقدمهم صاحب عكا، أسطولاً ضخماً نزلوا به في دمياط، ووضعوا في أهلها السيف قتلاً وأسراً، وعلم السلطان الكامل فاستنفر أخوته المعظم عيسى والأشرف موسى للجهاد وبادر لقتالهم، واستقرت أقدامهم بدمياط نحو ثلاث سنين، حاولوا بعدها الوصول إلى المصرورة، وكان فيهم ثمانية من الخيالة غير آلاف الرجالة، وأصدقهم يهم عساكر الكامل وأخوته موسى وعيسى، وعصف أسطول المسلمين ومنعتهم المورون، وأخذت الجيوش المصرية والشامية والموصلية تبتكي بهم فنكاً ذريعاً، مما جعلهم يلقون على يدهم صاعرون وخرجوا إلى البحر وما وراءه خاضعين، وصور ذلك البهاء زهير شاعر مصر لعهد السلطان الكامل، إذ يقول له من قصيدة طويلة:

بكر اهترع عطُفُ الدين في حلَّي النصر
وردت على أعقابها ملّة الكفر
وما فرحت مصر بذلك وحدها
لقد فرحت ببغداد أكثر من مصر
فمن مبلغ هذا الهناء عبادة
ويشرب ، ينهيه إلى صاحب القدر
سددت سبيل البحر والبر عنهم
بسانحة دُههم وسانحة غُر
أساطيل ليست في أساطير من مضم
بكل غراب راح أفتوك من صقر
وباتت جنود الله فوق ضوامر
بأوضحها نغى السّراة عن الفجر
ورويت منهم ظائٍ البيض والقنا
وشبعت منهم طاوي الذئب والنسر
ولازيت حتى أيد الله خزبه
وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصير
والبهاء زهير يصور تهل الدين الخنف بطفر السلطان الكامل
وذرره للصليبين وانكاسهم على أعقاهم ، ويقول إنها فرحة لم تسع بها
مصر حدها ، بل سعد بها العالم الإسلامي جميعه في بغداد وفي منازل
الوحدة في المدينة ، وإنه لدرو أن يهتاه الرسل عليه السلام ، فقد
حصى السلطان بِضة الإسلام من الصليبين وظهره في دمياط منهم
ومن أوزارهم . ويقول إنه طوق العدو يقرأ وبرًا ، فحرق أساطيل المسلمين
أسطوله، وسارت مراكب عليهم الطريق البحري كما سارت الخيل الغرطريهم البريء، وإن غربوها وحولها البيضاء تضغى حتى لتغفي السارين ليلًا عن ضياء الفجر. وقد أطلقوها غلا السيوف والرماح وتعطشها إلى دماهم كما أشببهم وأشلهم جياع الذئاب والنسور والعقبان. وظل يناؤهم حتى استخلص منهم دمياط وحي ووا على وجههم مهورون إذ أيد الله بنصره المؤمنين وكتب الخذلان والحسان على أعداءهم الصليبيين، ويصور ابن عيينة شاعر دمشق هذا الجيش اللجيب للصليبيين وما سدد إليه من ضربات المسلمين التي جعله يركع على قدميه مهارًا ويقارن بين صنع السلطان الكامل والصليبين بأسرهم إذ عفا عليهم وردوا إلينهم حرياتهم وبينما كان الصليبين يرتكبون في دمياط، وفي مدن الشام وحصونه من الدخان والتهليل والتحريك، فإنه ليقول متحيراً:

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا
- إذا جهلت آياتنا - والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفًا
من الروم لا يخفى يقيناً ولا ظنًا
فما برحت صحر الرماح تنوشنهم
بأطرافها حتى استجاروا بنا مينًا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى
وكيف ينام الليل من فقد الأمان
لقوا الموت من زرق الأمسنة أحمرًا
فألقوا بآيديهم إلينا فأشنًا

واين عينين يغادر في أول هذه الأبيات بسالة العرب الى تعرفها
أدوات الحرب من الخيل والرواح اللدن اللينة النافذة يوم النبي الحبشان:
الجيش العربي وجميل الرحم الذي لا يكاد يحسى، وقد أسرع شجاع
العرب ينتصرون ويقتلون بأطراف الرواح ويلقبون باسم كأسا
مريرة يتجرون منها ما يفض عن عيونهم الكرى ليلًا، وهن ينام من
يقلب على أشوال الخوف والرعب، ومازال الجيش العربي يفتقد بهم فتكًا
ذريعة، حتى استسلموا صاغرين من هول الحرب وما سبقاإليهم فيها
من الموت الأحمر الحشي.

وكانت هذه الحملة الخاطرة درسًا للصليبيين، فظلت سينين متعاقبة
لا يمر بخواطرهم أن يتجمعوا في حملة جديدة، حتى إذا كانت أواخر
سنة سبأنة وسبع وأربعين وسولت إليهم شياطينهم أن يعودوا إلى غزو
دمياط والديار المصرية وما أن لم أسقطهم بماً حتى خرج منها أهلها
وتركوا خاوية على عرورها. وكان قائد الحملة لويس التاسع ملك
فرنسا فتقدم مجموعه إلى المنصورة، والتي بعث نحو شاه آخر
سلاطين الدولة الأيوبية، وكان غالبًا في الشام، وطلت القتال بين
الفريقين شرحاً، وضع حال الصليبيين لانقطاع المراهن عليهم ووقع وباء في خيلهم، وعمل لويس على الرفع إلى دمياط، وصادف أن وصل توران شاه في أول شهر المحرم سنة ثمان وأربعين، وعلم بمقدار لويس، فقهه هو وجيشه ليلا، وأخذ جنوده يتختلفون قتلاً وأسرًا، وغنموا منهم ما لا يوصف كما يقول المؤرخون وظر أسطول المسلمين بأسلوبه، وأسر لويس التاسع في جماعة فرسانه في متنصف الطريق بين المنصورة ودمياط، ونزل في مركب بالنيل لتقوم إلى المنصورة، وأحدثت به مراكب المسلمين تضرًب فيها الصنوبر والطيب، وفي البر الشرقي الشبه المصري يسير في صباح ضجيج، وفي البر الغربي الفلاحون والعامة في طور وسرور بهذا الفتح العظيم، والأسرى تقاد في الخيال وهم أمراء وكونتات أو أشراف. وأصبحت عدة الأسرى فكانوا نقيضًا وعشرين ألفًا حسوا بالنصرة، وخصصت سجن لويس التاسع دار من دور الدولة تعرف بدار ابن لقمان، وهي الدار التي كان ينزل فيها فخر الدين إبراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء كلما جاء إلى المنصورة في عمل يتعلق بوظيفته، وعينت لويس حارس يحفظه هو الطواشي صبح، ولم يلبث أن طلب الدخول في الصلح والعودة إلى بلاده على أن يسلم دمياط ويسلم معها خمسة ألف دينار، وخرج على وجه مع بقايا جيشه خامسًا مدمحًا. ومضت نحو عشر سنوات، فإذا نفسه متحدثًا أن يعود الكرة للهجوم على البلاد الإسلامية وينزل تونس، ورد إلى مصر أخبر بأنه إذا ما يريد السير إليها، ولا يلبث ابن مطروح أحد شعراء مصر التابعين حينئذ أن يتهدده ويتوعده، وينصب أمام عينيه سجنه بدار ابن لقمان.
وهما يتتذرون من سوء المصير، يقول هازًا به ساخرًا منه سخرية لاذعة:

قل للفرسانس إذا جئته آجرك الله على ما جرى
أتيت مصر تبتغي ملكها
تحسب أن الزمر ياطب ريح
ضاقت به عن ناظريك الفسيح
بحسن تدبيرك بطن الضريح
إلا قتيل أو أسير جريح
لعل عسي منكم يستريح
فوفك الله لأمثالها
إن كان باباككُم بدلا راضيا
فرُب غُش قد أتي من نصيب
وَقَل لِهُم إن أضمرنا عودة
لأخذ شأر أو لقصص صحيح
دار ابن لقمان على حالها
والين تسفي تقريعه للويس التاسع بأنه مرسى له بكلمات صادقة
وتوزى الكلمات، وكأنها أفع تطرق عتقه، وأول أفقي دعاء له بحسن
الأجر والثواب على ما أنزله بعباد المسيح من الصليبيين أمثاله من القتل
والمديح وقطع الرقاب. والأفقية الثانية هكيم بما أراد من الاستياء على
مصر، يحسب أن ذلك قاب قوسين منه، فإذا هو ضرب من المستحيلات
 دونه حجز الأعناق والإلقاء في غياب السجون مع الأخلاص والقيد
على نحو ما ساقه الموت إلى سلاسل عبسه في دار ابن لقمان حيث ضاقت عليه آفاق الأرض بما رحبت، وثلث هي الأفقي الثالثة، والأفقي الرابعة تنكيله بأعماله إذ ساقهم بحسن تدبيره، بل بقبحه، إلى القبور والسجون زراعات ووحداتاً، حتى ليلغون خمسين ألفاً. ويحيط عنه بأنفع فضيحة من الهمم، إذ يدعو له أن يوفقه الله إلى أمثال تلك الحملة حتى يستريح عسي من جماعات الصليبيين، ويقول له إن كان البابا راضياً عن حملاتكم فقد غشكم وغنينكم ورب غيب يسهو نصيح. ويرفع أمام عينيه دار ابن لقمان وقبده وحارسه الأمن. ويتوجه إلى الملك الصليبي بالخطاب شاعر تونسي قاتل:

يا فرنسيس! هذا أخت مصر فتاهب، ما إليك تصير لك فيها دار ابن لقمان قبر وطاشيش، منكر ونكر وكأن هذا أقاماً، إذ مات لويس على أسوأ تونس وهو محاصر لها، قارئ جيشه على أعقابه كميراً دون حرب أو قتال. وكأنما خابت جميع آمال الصليبيين، فلم يعودوا يفتكرون فيحملات ولا في إغارات، وما نصل إلى سنة سيامة، وثمان وخمسين حتى يستنفد منهم الظاهر بيرس إنطاكية ويعضي في استنفاد كثر من البلدان والحرص مثل يافا والجبيل وطرطوس، ومضى في إثره السلطان المنصور قلاوون يستنجل الصليبيين من كثير من حسون الشام، وفتح طرابلس سنة سيامة وثمان وثمانين، واستولى على كثير من القلاع المجاورة لها، وخلفه ابنه خليل فاستولى على صور وصيدا. وسقطت عكا آخر معاقل الصليبيين.
في سنة سيتائة وتسعين بعد أن قتُّتم جيوشنا وأبطالاً دسراً لم ينسوه، وبعد أن تقهَّروا أهِل الضحايا بِمئات الألف في غير طائل، وبعد أن تغنِّموا من الشقاء والتعاسة مالا يدرك ولا يوصف. وكان طبيعيًا أن تتحرك أناشيد الاستصار بعد سقوط عكا، وأن يبتسم الشراء بالنصر مع المبتلين من مثل الشهاب محمود، وله من قصيدة طويلة يَبيِّن فيها السلطان الأشرف خليل بهذا الفتح العظيم:

الحمد لله زالت دولة الصليبي عَزِّ بالسيف دين المصطفى العري مابعدها، وقَدْ هَدِيت قواعدها في البحر، للشراك عند البحر من أرب كنفت تخيلها آمالنا في تفكيرها أعجب العجب سوران: بزوبح حول ساحتها دارة، وانعُناها أنَّ من القطب مصَّفَّحُ بصفاح حولها أَكْمُ من الرواح وأَبراج من البَلَب.* مثل الغماط تهدي من صواعقها بالبل أضعاف ما يَهِيَّد من السحب ففاجأتها جنود الله يقدمها غضبان الله، لا للملك وَالْشَّبِّ فأتلبت، وهي في بحرين مائدة ما بين مضطرم نارًا ومَطَرْب تَسْتَمَوْها فَلم يَترك تسُمها في ذلك الأفق برجًا غير منقلب...
والشاعر أحمد الله وينى على آلهته ونعمة، فقد احتت من الأرضين المقدسة دولة الصليبيين، عزر الدين الخنيفة، وإنه لعز ما فوقه عز فقد سقطت عكا، ودعت قواعدها الملاصقة للبحر، كما هدمت أسورها الملاصقة للبر، وهو ما يغفو كل خيال، إذ كان يحيط بها سوران يستديران من حولها فلا يستطيع أحد إليها نفوذاً، سور البر وسور البحر المصبان في السياح حتى ليظن من يراها أنها أبعد من القطب مثلاً، وعلى كل منهما صفائح السلاح، وزكام الرماح وأبراج من الربع أو البروسة تحتي وتدافع وورسل النبل وصواعقه وكأنها على غمائم مبهرة ترعد وتترهق بفعل الموت وسهامه. ويقول الشهاب إنه هاجمه بجثه طبلاً للثواب لا يزال ولا ما تلك رقة من الأرض، وحاصره بحران: بحيرة المضطر بآواه وبحر السلطان خليل المضطر بسيوفه ورماحه وناره، وقد علا جند الله أسورها وقلبو بروجها وجعلوا عاليها سافلها.

ويذكر الشهاب في القصيدة نار المجانين، ويقول إنه كانت نارًا عظيمة تغلغلت في البروج وتتلاحت في أركان البحار عارًٍا، ثم كأنه يعتلي في صدر الدين الخنيفة من كرب ونحوه. وما زال الأشرف وجيشه يقتل في الصليبيين ويأسر، ولم يقتل منهم إلا قليل ركبو البحر المتوسط، ورجعوا إلى أوطامهم ليحدثوا أهلها بأخبار تلك الواقعة، وكيف كانت مجزرة للصليبيين قضت عليهم ضاءاً، مباحاً حتى كانوا لم يكونوا شعياً مذكورين.

ولكن الآن لم تتحدث عن الحروب المغولية، ومعرف أأن الطوفان المغولي أخذ يندى من الصين لسنتين سنة ستانة وثمان عشرة متجهاً غربًا،
مكتمشاً أمامه، بقيادة جنكيز خان، كل ما يعرّضه من جيوش ودول وبلدان. فلا أمراء التركستان ولا أمراء خوارزم وإيران استطاعوا أن يصدوا تباره أو حتى يقفوا قليلاً، فالطوفان كان جارفاً عائداً، ومات جنكيز خان لغة سبعة وأربع وعشرين وخلفه أبناؤه يفتحون بقية المدن في إيران ومدن القوقاز وحصنها، وكلما ألمع فص سلم حَرَسْتُه مفتاحه لهم أو اقتحمو اقتحاماً. وامتدى الطوفان بقيادة هولاكو هزج بجنكيز خان إلى العراق، وحدثت الطامة الكبرى إذ سقطت بغداد عاصمة الخلافة العباسية لعُظمة سبعة وست خمسين، وأيال إنه استمر فيها القتال وسك الدماء ب phúc وثلاثين يوماً، وإن بلغ عدد من قتلهم المغول أو التوارث يعاتبة ألف أو يزيدون. ومضى الطوفان يكسع بلاد العراق بلدة أخرى، وإتجه إلى الشام، فاستسلم لهم حلب، وتنبأ البلاد الشامية تسلم مفاتيحها وأقفالها للنار، وحسب الناس كان شيئاً لا يمكن أن يردهم عن مصر وما وراءها من بلاد المغرب، وكانت مصر حينئذ تتزعم العالم العربي في حربه مع الصليبيين، وترشّك أن تقضي عليهم القضاء الأخير، فكان طبيعيًا أن تعرف خطرة الموتيف وأن تستعد لكح جماح هذا الطوفان وصده لاعنا فحسب، بل أيضاً عن البلاد الشقيقة الشامية والعراقية، وردء إلى مقره ومصره. وخرجت من مصر الجحاصل المصري لعُظمة سبعة وثمان رخعين، يقودها السلطان قطب وظهيره بئرسة البندقدار. وعلم المغرب نزوع تلك الجحاصل، فأعدها ما استطاعوا من قوة، والذّك يليه شبان الضخمان في عين جالوت في فلسطين بين يساني ونبيلس، واقتتلا قتالا عنيفاً، استبلا في واستبلا.
حتى كتب الله النصر للمسلمين، وإنكسر النصارى، ووُلِّوا الأدبار، بعد أن قتل المصريون والشاميون منهم مقتله عظيمة، قتل قائدهم كنابا، واعتصمت منهم طائفة بتل مجاور لمكان الموقعة، فأحدثت بهم السكر، وأفنواهم قتلاً. تبع ببيرس في جماعة من الشجعان والفرسان فلولم المهروسة إلى أطراف البلاد يقتله فيهم. وفتحت البلاد الشامية أبوابها للجيش النصارى، وتقهق ببيرس حتى حلب، ووصل السلطان قطع دمشق مؤدياً منصورة واستقبله أهلها استقبالاً حافلاً، وأخذوا ينرون عليه كثيراً من أشعارهم وآناشيدهم.

والبطل الحقيقي هذه المعركة هو ببيرس البندقداري، الذي أبلى فيها بلاء حساً، ومضى وراء النصارى المهزمين حتى كسب سليهم من الشام جميعه، حتى أبوابه العليا في حلب، وبذلك انكسر طوفانهم وسيلتهم. وقد ولى سلطنة مصر والشام في نفس العام، وعهدوه يعد من أزهى عهود الممالك، وقد تلقب بالمملوكون الظاهر، وأريا آناه حملاته على الصليبيين وتوجيه إليهم ضربات قاضية. أما النصارى فقد كانون داهمةً لم بالمرصاد، ووافته الأنباء في سنة سبعة وأوَّل، وسبعين بأنهم يعدون العدة لغزو الشام، فرحب إليهم يبيش جرار، وعرف أنهم يتجمعون شرق نهر الفرات، فخاضهم إليهم بعسكره، وأنزل بهم هزيمة ساحقة كهفية عين جالوت، وتوافد عليه الشعراء يهتفون بهذا النصر المبين مشيدين بجرأته وجرأة جيشه في خوض نجم الفرات وفخري بجح دماء الأعداء إلى الظفر على شاكلة قول الشهاب محمود:
بيّر حيثٌ شتَت لك المهيمن جارٌ
واحكم فطوع مرادك الأقدارِ
لم يبق للدين الذي أوّهته
باركنه عند الأعادي ثارٌ
لم تراقصت الرؤوس وحَرَكت
من مطربات قسيك الأرثارٌ
رُست دماوهم الصعيد فلم يَطير
منهم على الجيش السعيد غبارٌ
شكرت مساعيك المعاقل والورى
الترب والآساد والأطيار
والشhab محمود ينبي الظاهر بيبرس بما يدل عليه هذا النصر العظيم
من حماية الله له خضوع المقادير ، تصعد بكل ما يشاء ويريد ،
كأنها مسخرة له تسخيرًا ، ويقول إنه أظهر الدين الحنيف وأعزه ورفع
رأسه عاليًا بما حققه له من إدراك تأره عند التتار ، وصول جرأته وجرأة
جيشه الجرار . فبمجرد أن تراى العدو على الشاطئ الشرقي للفرات
اقتحمه إليه ، واقتحمه معه جيشه ، وإذا الفرات يقطع فرذا ، وكل
طرق كأنه طود ، وما الطود والأطوال إلا جيش السلطان الظاهر الذي
سرعان ما اشتهك مع التتار ، وأخذ ينحر فيهم كالخراف حتى جرت
سیول دماؤهم على الأرض، فكنت لا ترى غبارًا تثيره الخيل، إما ترى دماء مسقوفة تغوص فيها. وإن كل شيء يشكر ببرس ومساعيه وأعمال الليلة، تشكو الحصون على ما أحرقها به من منعة، ويشكره الناس خمايهم والدفاع عنهم، ويشكره التراب لما سقاه من دماء الأعداء، ويشكره الأسد والطيور لما أطعمها من جثث التور وأشلاءهم المتنايرة.

وأما إن شرف على أواست العقد الأخير من القرن السابع الهجري حتى يتعتق الإسلام، غازان، خفيفه لاكو هو وجوهه، ويكون ذلك إيداناً بانتهاء الصراع بين البلاد الإسلامية والمغول، إلا مناوادات وغارات من حين لآخر. وبدخل يصبح الظاهر ببرس بطل الحروب التي خاضتها مصر والشام ضد المغول، وكان له أيضاً دوره، كا أسلفنا، في الحروب الصليبية. وكان يجعل سلطانًا شجاعًا مقدماً وفارساً غازياً مهداً في سبيل الله مرابطاً بالثغور سرع الحركة، يقود الجيوش ويقتتح الموارك بنفسه مبادراً إلى حربها وساحتها المضطربة، وله لذلك أتى هذه القصاص من بعده ما ضرورة تعرف باسمه، وهي قصة طويلة تصور بطولته في معركة وحروبه كما تصور فروسته وشيمنة الرفيعة وخصبة التسامح والمتفرونة الأعداء حين يوقع في قبضته، وأيضاً فإنها تصور تحرره ومروته وإقدامه وجرأته.

والسيرة تتخلى بغمات وعوارق كثيرة وكأنها سيرة البطل العربي في الحروب الصليبية والمغولية جميعاً وكل ما نمض به في هذه الحروب من ضروب سلاسة خارقة وكل ما أتسم به فيما من خصال خلقية كريمة.
في معارك التحرير

ظلت البطولة العربية تضطرم في معارك العرب مع الغرب على مدار التاريخ، اضطرم منذ الفتح الإسلامي في معاركهم مع البيزنطيين، وإزداد اضطرامها حدة وقية في معاركهم مع الصليبيين، وسقطت منها شعل قوية في معاركهم بالأندلس مع الإسبان. ثم أخذ يتراكم عليها رماد ثقيل من احتل العثمانيون البلاد العربية في القرن السادس عشر الميلادي. وما يكاد يشرف القرن الثامن عشر على نهايته حتى يغزو الفرنسيون مصر بقيادة نابليون بونابرت، ويتضح المصريون في جلاء ضعف العثمانيين وتابعهم من المماليك، إذ لا يستطيعوا الوقوف في وجه الفرنسيين، وأخذت جذوة الشعوب القوية العرقية تنقد من جديد، ففي المصريون يصدرون عنها في مقاومة الفرنسيين المغيرين حتى اضطروا إلى مغادرة مصر مدحورين إلى البحر المتوسط وما وراءه. ونهبت الحملة مصر إلى ما كانت ترزع فيه من تخلف لا في المجال العسكري فحسب بل أيضاً في المجالين العلمي والسياسي، واندفعت في نهضة علمية كبيرة، مؤسسة لمدارس مختلفة حربية وصناعية وهندسية وطبية، مستقلة طائلة من العلماء الأوروبيين، ورسالة البحث للتخصص في مجالات العلوم المتعددة. وفي هذه الأثناء أخذت البطولة
المصرية العربية تجمع تحت لوائها الجزيرة العربية والشام والسودان، وكأنها تريد أن ترد إلى الديار العربية وحدها القديمة، غير أن الغرب كان لها بالمرصاد، فأغمرها في سنة 1840 على أن يتحسر لواؤها عن الشام والجزيرة العربية، أما مصر فتظل ولاية عثمانية، تزولا أسرة محمد علي، وليس من حقها أن يتجاوز جيشها ثمانية عشر ألف جندي إلا إذاً من السلطان العثماني، وعلى أن تتخضع لما فرضه العثمانيون في دولهم للأوروبيين من امتيازات.

ومنذ أخفقت حملة نابليون على مصر كانت فرنسا تفكر في قطع عرب آخر تحته وتعصر ثورته، وسغان ما نزل جيشها الجزائر لسنة 1830 جalted الحملة الفرنسية على مصر، بل مجددا الروح الصليبية الآثمة، مستخدميا كل ضرب من ضروب العنف والبطش، وقاومت الجزائري مقاومة باسمة امتدت ثمانية عشر عاماً، وكان الذي سرعها وأذكى نارها البطل المغوار عبد القادر الجزائري، وقد بايعه الشعب أميراً له وزعيا وقائداً عسكرياً سنة 1832، وتجمع الشبان وأولو العزمن حله، واجد ينزل الفرنسيين وينزل بهم ضربات قاصمة. وطال أمد المعارك، وهي أولى معارك التحرير العربية، وقد مضى العرب الجزائريون فيها تحت لواء الأمير يعصفون بالعدو وجدوه ورصاصه ومدافعه، غير مبالين بالموت، بل إنهم يستغذبون في سبيل إنقاذ وطنهم وتحريرهم من المستعمر الغاشم، بل لقد كانت لهم مواقع عظيمة دقوا فيها أعناقهم دقيقة، وخاصة في ختام النطاح الأول، وختام النطاح الثاني وفي فتح تلمسان واستردادها من أبدي الأعداء. وكم كانوا من
الجزائر في هذه المعارك الطاحنة، وكم صلى أهلها من قتل وتعذيب، والمجاهدون الأحرار صامدون من وراء بطلهم يكلون بالعدو تكيلًا شديداً، ومالت تتولى عليه الإمدادات، حتى تغلبت قوى الشر والظلم والغنى، والعدوان لسنة ١٨٤٧ بعد نضال مرير. وتمكن المقاومة بعد الجهاد العظيم، ويستسلم الليث المصور وينفي إلى فرنسا، ثم يفرج عنه بعد سنوات، فينزل تركيا ثم دمشق والشام، وكان شاعرًا، كما كان فارسا مقدماً، فتغفي الفروسية وبالبطيلة صارخًا في أمه وجنده حتى يقتحموا معه بلج الحرب وأعاصيرها الغامضة مصورة لم ساله وشجاعته الحربية، مثل قوله:

إذا ما لقيت الخيل إلى لأول
وإن جال أصجابي فإني لهم تال
وبه تنتهي يوم الطعان فوارسي
تخاليهم في الحرب أمثال أشبال
وابدأ يوم الرًوع نفيساً كرية
على أنها في السلم أغلٍ من الغال
وعني سل جنس الفرنسيس تعلم
بأن منياهم بسيئ وعسالي
وهويصور نفسه فارساً يقدم الفرسان في العراك والتزلج، حتى لهم ليلودون به مع ما أثبوه من قوة كقوة الليث الكواسر؛ فإنه ليحمس
الليل حين تشكى بآصولها الخفية من كثرة ما يأخذها من السهام والنصر والنصاص، حاليًا لها أن تصر صبرها في الأذق الكريهة. ويعلن إعلانًا أنه يضحي بنفسه الغاليه من أجل وطنه حين يحمي وطيس الحرب، فإنها أنها إنفس ما يملك وهو بيدها لأمه راضياً. ويتوجه إلى زوجته مفخراً بما أبلغ في حرب الفرنسيين، فإنها حين تسأل عن شأنه في معاركه التي يغزوها معهم تعلم أن سيفع ورمحه لا يزالان ينهشان نهمًا.

وأخذت فرنسا منذ إنتحرت الجزائر تمد في الأسباب لاحتلال تونس، وكان حكم اليابات فيها قد استرى فيه الفساد، لما شاع فيه من جور وظلم، ولا أرهقت به البلاد من دين، وخاصة فرنسا، التي ظلت تحيك شبكها حول تونس، حتى احتلها لسنة 1881 بعد أن غلت على أمرها.

فقد اكتشفت قوى العدو البلاد، وأخفضتها حكمها بالقهر والبطش، ومضى الفرنسيون يعملون على اغتصاب كل ثروات تونس وإقفار شعورها، وحذقها اقتصادياً، وشد الرحالة إليها كثيرون منهم: سياسة وتجار، ولصوص محترمون.

وكانت إنجولا قد أخذت منذ حملة نابليون على مصر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي تشكل العدة للانتفاضة عليها، وكانت أجنبتها قد قضت منذ سنة 1850، كما أشار إلى ذلك آنذاً إذا جرت من عدتها الحربية وأصبحت نهياً للأوربيين، وعادت ولاية تابعة للعثمانيين، وابعد سعيد يديه إلى الغرب يستدين، وظل قروصان فرنسي كبير يوسع له مشروع قناة السويس لوصول البحران الأحمر وال地中، ومازال به حتى منحه لسنة 1854 العقد المشترى، عقد امتياز تأسيس شركة
عامة لحفر القناة، وكان مأساة لا مثيل لها في التاريخ، فإن سعيًا لم يقف عند إنشاء القناة على يد شركة أجنبية، بل مفضى يسر في منهجها الحقوق حتى أصبحت كأنها دولة داخل دولة، وقد تهدد فيها تعدد أن يقدم للشركة ثمانين في المائة مما تحتاج إليه من عمل، وليس لمصر في مقابل ذلك سوى خمسة عشر في المائة من صافي الأرباح السنوية، وبايع توفيق الآخرين فيما بعد لعبد القادر الفرنسي هذه الأرباح التي تخص مصر بمقسومتين: اثنين وعشرين مليونًا من الفرنك.
وتوغ سعيد وخلفه إسماعيل لسنة 1869 وحفر القناة قام على قدم وساق وكان أكثر حمقًا من سلفه، وتورط في ديون باهظة، وكان لمصر من أسمى القناة ما يقرب من نصفها اكتسبت بها في عهد سعيد فابرا لإيجادوا بدرهم معدودات: أربعة ملايين من الجنيحات، وأسأوا ما أصيبت به مصر لهذه الدين، الفادحة، إذ مفضي يفترض بدون أي مسعود من البيوت المالية الأجنبية القنطرة القنطرة من الذهب والفضة حتى بلغت أكثر من مائة مليون من الجنيحات، وكلا تسلم قنطرة بعده في مأربه الدنيا، فقناطر تتفتح على بناة قصوره، واثنتان تتفتح على مباذله، وثالثة تتفتح على رحلاته إلى أوروبا والآسيا. ويكفهر الجلوس، وإسماعيل ساد في طفانه وجره، وتيهائه إسماعيل صديق وزير ماليته يسوق له فرض الضربات، حتى كل الشعب خارتنا قواه، وأخذت المشاعر القومية تضطرب، واضطررت بها في نفس كثيرين رغبة قوية في الثورة على الظلم والطغيان وما توشك أن تترد في البلاد من الإفلاس وما لا يعلم إلا الله من سوء المصير، ويرتفع صوت البارود مئجولا

113
لسنة 1829 مطالبةً شعبه بالقضاء على إساعيل وحكمه الفاسد قضاء مبرماً، صارخًا بكل قوته:

فيما قوم هبوا إنما العمر فرضة وف القهر طوق جمة ومنافع أصعب على مس الهوان وأنتم عديداً الحصى؟ إن لم إلى التراجع وكيف ترون الذل دار إقامة، وذلك فضل الله في الأرض واسع أرى أروساً قد أينعت ليحصدها فاين - ولا أين - السيف القاطع. أهبت فعاد الصوت لم يقض حاجة إلى ولائي الصدى وهو طائع والبارود يهب بقومه إلا يتركوا الفرصة تتسع من أيديهم فيثوروا ثورة مدمرة على ظالمهم وأعوانه الذين بذوقهم ضروبًا لا تتوقف من العصف وأطوار والذل المقت الذي لا يستطيع احتياله النفوس الكريمة، بل الذي يدفعها ذفعًا إلى أن تنتمى لmprها وكرامتها من أحاطوها به وتبلغ الثورة الذروة في نفس البارود فيطلب إلى الشعب أن يمد أيديه لقطع رأس إساعيل ورروع فتائه إلى أخويه. ويعس كأنما تذهب صرخته أدراج الرياح، فيحزن ويؤسس، إذ لا يجد الشعب يساع إلى الثورة وإلقاء أعباء الظلم عن ظهوره. وكلما تقدمت سنة من سنوات العقد الثامن من القرن الماضي ازدادت مهنة مصر المالية وتكاثرت ديون إساعيل السفие، وليس ذلك.
فقط فقد ارتفع تدخل الأجانب في شؤون مصر، وأنشأ لسنة 1876 صندوق الدين، وزاد الطين ضغطاً على إبالة، فأردت أن يقوم ريفيان إنجليزي وفرنسي على شؤون المالية المصرية، وسرعان ما أصبحا في سنة 1878 وزيران في وزارة نوبار أحد العملاء القدماء للأوروبيين، وأخذت نفس المصريين تغلى بالحنق والصمت على إسنايل وحاشيته، ومضى كثيرون يدعون للثورة على الفساد والظلم والطغيان، قبل أن تردى البلاد في هوة لا تستطيع منها خلاصاً، وعاد البا رودي يصبح بالشعب أن يثور على حكمه الفاسدين الجائرين ثورة عنيفة يستردها حريته وحقوقه فيمن يعليه شعور نفسه، حتى ينددك الأمر قبل فوته، فيزيح عن كاهله الذين الباهظة، ويعم الأمن والعدل ويعود الرحاء، يقول من قصيدة طويلة:

وإننا غرض للشر في زمن
أهل العقول به في طاعة الحمل
قامت به من رجال السوء طائفة
أدهى على النفس من بوس على نكلى
من كل وغد ينادي الدست يدفعه
بعضًا، ويفظفه الديوان من ملل
فبادروا الأمر قبل الفوت وانزعوا
شكاية الريث فالدنيا مع العجل
وقدّموا أمركم شهداً أخا ثقة
يكون ردًا لكم في الحادث الجليل
وطالوا بحقوق أصبحت غرضاً
لكن منتزع سهماً ومختصلاً
حتى تعود سهاء الأمن ضاحية
وَيَرْفُقُ العدل في ضاف من الحلل

وهيوستيير الشعب بما يصور من الشر الجامع على صدره وكأنما يستكن عقلاً له من يحكمهم من الخاملين الذين أهلوا حياتهم بؤساً وحزناً حين تكلم على أبناءها، من كل وفد ليله، يكاد دسته في الحكم أو بعبارة أخرى مجلسه فيه بدفعه عنه دفعة ليدفعه ما دمته من عام.
وأي عام؟ لقد ذلت بهم مصر بعد العر اختيال ملتها وكل ما فيها.
ويعجب البارودي ألا يسرع الشعب إلى الانتقام من إيساعيل وحواشه الذين استنذالوه، وإلى ليسائل مستنيراً المهم ومستنجاماً العزائم هل حل بالأبطال ضعيف أو أصاب الأسياف فللا تستطيع أن تضرب الضربات المصرية، ويدعو ممساً إلى المبادرة وفك عقال الإبطاء، حافزاً للثورة تحت لوائه واللطابة بحقوق الأمارة المشروعة إلى أصبحت لكل أبناء الأم من مهرين بالسيف وبالخليفة والملك، حتى تشرق على مصر أضواء الأمن والدعة، وحتى ترفل في حل البداية والكرامة.
وينتهي عصر إيساعيل ويتلذه ابنه توفيق، ويعطي متحيطاً في
سياسة خرقها عادة حكم استبدادي ظالم وازداد نفوذ الأوروبيين في الدولة بالكثير من توظيف كثير من المستشارين الذين تغلغلوا في الدواوين، وإثارة الفرصة لرؤوس الأموال الأجنبية كي تستشر موارد البلاد وتستنزف آخر قطرا من قطراتها. وكان أبوه قد عمل على أن يحرم الضباط المصريين من الرقي إلى الوظائف العليا في الجيش على الرغم من كفاءاتهم المتزنة، وجعلها مقصورة على الضباط الأتراك والشراكسة.

تعداد توقيف في هذا الظالم الصارخ، وبلغ الظلم ذروته بتوليته عيان رفيق الشركسي شؤون البحرية والبحرية، وسرعان ما قامت الثورة العربية بقيادة أحمد عرابى على هذا الظالم المخيف، وأذن الخديوى توقيف صاغراً، وخرج رفيق من نظارة الحربية والبحرية وتولىها محمود سامي البازو. وأدخلت تلألأ الاحذاث، وتألفت وزارة من زعماء الحركة العربية برئاسة البازو وفيوض عرابى بنظارة الحربية والبحرية، ولم يقر قرار الإنجليز، لقيام هذه الحكومة الوطنية التي ينتظر أن ترد الأمر إلى نصابه وتكذب مصر من الدمار الاقتصادي الذي يوشك أن يؤدي بها إلى دمار سياسي أكيد، وأخذوا يبدون بدور الوقعة الضيقة بين توقيف والحكومة الرشيدة، وما زالوا يحكمون الدسائم والفتن.

حتى ارتفعت توقيف الطائش قصير النظر أن يدخل جيشهم مصر لحمايته من الثوار، وسرعان مادون مدافعهم على شواطئ الإسكندرية وبور سعيد والسويس، وقام الجيش والشعب بقيادة عرابى والبارودى مقاومة بأسلحة غير أنهم كانا يقاومان جيشا ضخما يفوقهما في عدده وعتده الحربية، فانتصر العدو الأتم، ومضى حتى احتل القاهرة، ودخلها في ظلال
مدافعه ورصاصه توفيق ومن معه من الخائنين، واستقر العدو على ضفاف النيل تحت اللواء البلاد الطاهرة، زاعماً كذباً وبهتاناً أنه سيجلو منها حين تبدأ الأمور. ولما بدأت تفاوض مع الدولة العثمانية على إجلاء، ولكنه وضع من دونه شروطاً تثبت أقدامه في مصر، تفضح له في المقام.
 وكان زعيم الثورة العربية قد اعتقلوا وألقى بفهم في غياب السجون الانتظاراً للمحاكمة، وحكم بالمؤبد على زعيم الثورة وفي مقدمتهم عرابي والبلا رودي ونقروا إلى سرداب.

وكان البارودي في كل هذه الظروف التي أجهلناها يفزع إلى قيثارة يغني بها بكل ما يعتقد في نفسه من سخط على توفيق وبطاته، ومن ثورة على المستبد الأقرن ومن محاولة لاستغاق الشعب كي يلقى شرواط غيظه على نظامه إلقاء عنيقاً في القلوب حزناً ويزвал الفساد زارلاً يأتي عليه وعلى من يجدون له في أسباب الغواية. ومن خير ما يصور ذلك قصيدةً التي نظمها وهو ناظر النظار يدعو فيها دعوة صريحة للثورة على توفيق، ثورة دامية تطأ برأسه وروع أذانه: يقول:

"تأطه أهداً أو تقوم قيامةً فيها الدماء على الدماء مترأك وأنا لا أفرق على القبض، يهبة، إن القرار على القبيح، نفاق، قلبي عليه، بنفسه حرة، تأتي الدنديّة، وصارى ذلوق، وعلام يخشى المرة، فرقة، وروح، أو ليس عاقبة الحياة فراق، وهو يهجّر بأنه لن يبدأ ولن يستريح حتى تحت ثورة حمراء يسل فيها دم توفيق وأعوانه مدراراً، وقيل إنه لا يفر أى على قبيح نفاق"
ورياه، فقد خلق أنيا حراً، يأتي دنيات الأمور، معتصباً يسيف قاطع.
وفحى يدعي الموت، وهو عاقبة كل حي إذ كل من علمها فان
إما عيش كريم وإما موت زؤام. ولو أنه استخدم سينه حين الدخول
مصر من محتها بتوفيق لما نزلت بها الطامة الكبرى، طامة الاحتلال
البريطاني البغيض. وقد ظلت له بعد إخفاق الثورة العربية وطوال منفاه
هذه الروح القوية، وكون نفسه كانت من الصلاة بحيث لا تؤثر فيها
الخطوب مهما اشتدت، ومهما أثارت عليه بكل كلمتها التحقية، ولذلك
نراه من حين إلى حين يدعو إلى الثورة على توفيق، ثورة تصف بها
وأعوانه أعداء الشعب الآمنين.
وعلى هذا التحوظة الثورة تغلب في عروض البارود على الرغم من نفيه
إلى سرنديب، وظل ينذر ويتعهد ويهدد بروم الثورة الذي يصرف
بتوفيق وبطالته، والذي تأثر فيه الشعب لكرامته، وتلفت في وطنه
فلا تجد أصداء لصيحاته وصرخاته، وكأنما أذن الناس تفوق الإنجليز
في أسلحتهم الحربية على نحو ما أذن ذلك آباءهم وأجدادهم إزاء الحملة
الفرنسية القديمة وعاتدها الجريمة، وكانت قد بعت في العرب المصريين
نطلبًا قويًا إلى الأخد بأسباب النهضة العلمية، فضوا بحذاث نهضة
عظيمة، كما مضوا يحاولون مقاومة حكم الخديويين الفردية المطلق،
وتطورت الأمور، وأنقل كاهل مصر بالدين، وعثرا حزام الأمية
أن يرخصوا من إساعر، وابنه توفيق حقوقهم في الحكم وجميع
شئونها الداخلية والخارجية، فقد ظل سادرين في غيهمما
إلى أن حدثت كارثة الاحتلال البريطاني وجرد الإنجليز الشعب من جيشه
الوطنى وأحىوا مكانة جيشًا هزيلًا يرأسه سردار إنجليزي وضباط بريطانيون، ووضعوا أيديهم على كل أدوات الحكم، وخنقوا الحرية خنقًا. ونفس الرواية كانت تمثلها فرنسا في الجزائر وتونس، مما جعل الناس يستشعرون هنا وهناك ألمًا مميتًا، وقد أخذوا يشعرون أملهم في ضروب من الإصلاح الفكرى والديني والاجتماعى، فظهر في تونس خير الدين التونسي الذي كان يستشير المصير التجمع لوطنه قبل نزول الفرنسيين به، ففي طائفة من الإصلاحات التعليمية الدينية يريد أن يستنذق بلاده من الخرافات وأن يهيئة للحياة العلمية الحديثة، واستمرت إصلاحاته مطردة، وإن كان نلاحظ أنها لم تصل بمحاولات الإصلاحات السياسية حيث تنشأ مقاومة سريعة ضد الفرنسيين واحتلالهم الغادر للبلاد. ونلاحظ ذلك نفسه في الجزائر، فإنها لم تتحاول مقاومة المحتل طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وشطرًا كبيرًا من القرن العشرين. أما مصر فقد أخذت تفعى بالإصلاح الفكرى الدينى على نحو ما هو معروف عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبد ودعوته إلى الإجتهاد في الدين والتحرر العقل وإنكار البوع والخرافات، كما أخذت تفعى بالإصلاح الاجتماعي على نحو ما هو معروف عن قاسم أمين ودعوته إلى تحرير المرأة، ولم تنس مصر الإصلاح السياسي وما يتبعه من المقاومة للعصب الأمنى، حيث لم تبادل ذلك تأوي، ولكن لا ينكمش نشره على نهاية القرن التاسع عشر حتى يحمل مضطىء كامل لواء مقاومتنا الشعبية ضد الاحتلال، وبه سمى الصحيفة التي أصدرها لمقاومة قوى البغي والشر والعدوان «اللواء» وهي لواء أحاله إلى مقالات نارية وخطب ملمىً بـ...
صرخًا في وجه الإنجليز أن يجلوا عن البلاد، وتساقل في الديار الأوروبية صاحبًا في المفاصل الدولية بحقوق الشعب المصري في الحرية والاتصال والاستقلال، حتى إذا حدثت محاكمة دنسواي الجائزة لسنة 1906 مضى يصرخ في باريس ولندن مصراً فظائع الإنجليز وحكمهم الغاشم، وذلك أن خمسة منهم قصدوا إلى قرية دنسواي لصيد الحمام، فترفض لم تفر من أهلها وصادف أن أصيب ضابط بقرية شمس أدت إلى موتهم، فثارت ثورة اللورد كرومر عبيد الإنجليز في مصر، وأمر بأن تعقد لم محكمة مخصصة برأس غار من محكومهم، فقضت بإعدام أربعة من المهمين شنقاً وجلد سبع بالسياط، وبعض تلقينًا مدة متفاوتة. ونفذ الإعدام والجلد بمرأى من الآخرين تكتيلاً. وكان ذلك بمثابة نفي لإيقاظ أهل مصر تجمهم تحت لواء مصطفى كامل لما انتقله الباغي الطاغى في الصحف والخطاب والمناشيد الحماسية من مثل قول حافظ ميساً بشاعة هذا الحكم الجائر، وكانوا إذا نقلوا شخصاً أبقوه معلقاً بيده.

حتى يجلد أثناين بالسياط.

جُلّدوا ولو منيتهم لتعلقوا بحبال من شنقوا ولم يتهيأوا يتحاسدون على الممات وكأسا بين الشفاه وطعمة لا يُغولب موتان: هذا عاجل متنمر بناء، وهذا آكل يترقب وحافظ يصيرون الجبارين، وميم يصرون المشنوقين يتدلون في الحبال فيتنمن لهم ما كان لهم من المصري ألغة أن تمس جلوهم سياط العدو الأئتم وجهة وسيلة وشجاعة، بل أنهم ليحبسون إن خوانهم المشنوقين
على الموت يرددون أن يختسوا كأسه، وهل أمامهم سوى موته، موت عاجل شنقًا، وموت بليء، يتجرعونه بالسياط وغير السياط، مما يسلط عليهم الخلل الغامض. ومالة مصطنعة كامل والمصرين يشعون حملات شعواء على كرومر وطغياهه وظلهما الصارخ في كل صحفية وعلى كل لسان ما اضطر إنجليزًا إلى تلق كرومر من مصر. وسرعان ما يلبس مصطنعة كامل نداءه ربه، فيبكيه حافظ وبيكيه شرق بكاء حارًا، يصرا فيه حزن الشعب لفقهده و مدى إحساسه بالخسارة الجسيمة لموته، من مثل قل حافظ في وصف جنازته:

تسعون ألفأًحول نعشق شبع
يمشون تحت لوائكم السيار
خطوا بأدمعهم على وجه الدير
آخر يوالون الضحيج كأنهم
ركب الحجيج بكعبة الزوار
وتخلهم آناً لفرط خشوعهم
والد المصل بنصفون لقاري
كانت القاهرة قد اهتزت وارتحت حين بلغها النبا المفجع، فخرجت جماعها تدوع وتشبعه إلى مثوى الأخير، والتقت الألف المؤلفة حول نعشه، وسارت من ورائه وهي تجهش بالبكاء، مرسلة دموعاً غازراً، فياترة تضج بالصراخ والعويل، وكأنها ركب حجيج زاخر بالوضوء، وتارة يشفع الناس كأنما ينصبون لقاني يتلو آيات الذكر الحكيم، فهم راجمون من هول المصاب ذاهلون، وقد ملأ قلوبهم الحزن والحزج
على بطل الوطنية الأول الذي قضمه الموت في ربعان شابه.
وكانت بريطانيا قد عقدت لسنة 1904 اتفاقًا بينها وبين فرنسا
أقرت فيه بإنطلاق عداها في مراكش في حين تطول هي يدها في مصر،
وضعت فرنسا تنصب الشباك لمراكش حتى وقفت فرصة لاحتلالها
المشروعة. وما تلى إيطاليا أن تطمأ إلى أن يكون لها نصيبها بدورها في
الشمال الإفريقي، ففيما، لسنة 1911 ينيسها وأساطيلها على طرابلس
وما وراءها من الديار الليبية، ويجاهدها الليبين مقاومة عنيفة يكينون
هنا فيها كثيرًا من الضربات واللمعات، غير أن التفاوت الشامع بين
القوىتين المتحاربتين انتهى بمصر إلى نفس المصير الذي انتهى إليه احتلال
جاراتها. وتصاحب شعراً العربيين في كل مكان يعمدون نضالها وما بذلته
من الدماء مسجلاً على الطليان الخزى والعار لقتلهم الشيوخ والنساء
والأطفال الأبرياء، من مثل قول حافظ في مياسمة له طويلة:

عجز الطليان عن أبطالنا
فأعلُوا من ذرازينا الحسана
كباً كباً: قتلهم مثلاً
ذبحا الأشياخ والزمرى ولم
يرحموا طفلاً ولم يبقوا غلاماً
لزموا الساحل خرفًا واعتصاما
نار حرب لم تكن أدنا ضرما
إن في أضلاعنا أفتكدْ تعشق المجد وتأتي أن تضاما
ما هو يقيل إن الطليان حين عجزوا عن لقاء أبطالنا جبناء وفزعًا
سقوا سبيلهم من ذرازينا وأطفالنا نذالة وحسة، ومضوا يكبلوهم
بالاغلال ويسكون دماءهم، وحتى النساء مثلوا بين تمثيلاً فظيعاً، وذهبوا الشيخ والزمني ذرى العاهات ولم يجرموا بتها ولا طفا صغيراً. وعصف بهم الليبيون عصاناً إذ اضطرتهم إلى الانسحاب والإياباد إلى الساحل، ويشت حافظ هذه منهم بسخرية لاذعة إذ يجعل النصر من عاداتهم وهم يقرون على وجههم، ويشير إلى بركان فيزوف جنوب إيطاليا قائلة إنهم فروا منه إلى بركان عربي لبدأ ولا يعمد ولا تسكن فورته. ويلعن أن العرب في ليبيا وغير ليبيا سيظلون ياضلون عن كرامتهم إلى آخر قطارة من دمائهم، ولن يهونون وليضفون ولن يلحقهم أي ضيهم أو هوان. وكتب على ليبيا ما كتب على جارتها، من احتلال الأجانب الآمنين.

وكان قد تزعم الحركة الوطنية في مصر بعد مصطفى كامل صفيه ورفيقه محمد فريد، فظل يصارع العدو الباغى وهو يلتقي به في السجون حتى بدأ منفاه في أوروبا لسنة 1912، وظل سنوات متصلة يختلف إلى المؤتمرات هنالك ويكتب في الصحف وينطبع فوق أعود المتابعة مدافعاً عن قضية وطنه وفداً حاراً حتى لي تدار ربه لسنة 1919، وكان الشعب المصري قد فاض به الكيل، فثار ثورة ضارية على الإنجليز وكأنوا أعلنوا عليه الحماية عقب شوب الحرب الكبرى الأولى لسنة 1914 كما أعلنوا الأحكام العربية وفرضوا رقابة شديدة على الصحف وكموا الأفواه، حتى إذا وضع الحرب أوزارها أخذ الشعب يطالب بحقه المشروع في الحرية والاستقلال ورفع الحماية عنه والأحكام العربية والرقابة على الصحف وجلاء العدو عن البلاد، وكأنما كان ذلك
إذانًا بأن يثور البركان العربي الذي أشار إليه حافظ ثورة تظل تتفجر في كل مكان تحت أقدام المحتجين الباقين. والشعب المصري بذلك هو أول شعب عربي في أضرم النضال في القرن العشرين ضد الأعداء الطاغين، فأخذت حمده تسيل ملتهبة، وعلم السيل في شهر مارس لسنة 1919 وتحول إلى ما يشبه طوفانًا من مظاهرات الطلاب والعمال وأفراد الشعب عن بكرة أبيه، وسكنت القوات الإنجليزية مدافعاً وفيراناً ورصاصاً علماً، ولكن السيل لم يوقف بل أحذ زدد كل يوم وأمواج تتنافع. ولم تثبت النساء أن شاركت الرجال في الجهاد، فيلمنّت مظاهرة كبيرة طفّن فيها بالشوارع، وبأيديهن احتجاج مكتب يُردّ تثبيته إلى سفراء الدول الأجنبية، وتضمنت لمن قوات العدو والعالم ضاربًا تحت Guillermo سنواً وسددة بنادقها وحرابها لصدورها. وفي ذلك يقول حافظ محبيًا شجاعتهن، واستسلمن ساخراً من قوات العدو وسلكها الخريف المشين:

خرج الغوان يحتشج ن ورحت أرقب جمعتنه وإذا بجيش متقلbal والخيل مطلقة الأجنحة وإذا الجنود سيفها قد صوبت نحو رهنته وإذا المدافع والبنا دق الصوارم والأسلحة فتظاحن الجيشان سأوات تشير لها الأجنحة فليله السر الجنيح وهو نصرو وبكسرهما وحافظ يصور كيف برز النساء مظاهرات احتجات تتكون...
الخمسة والواقار، يتبين بسقوط الحماية وحياة الاستقلال والحرية، وهو وغيره من أبناء الشعب يشاهدون في إجلال هذا الموكب النسائي المخالف، وما إن طف نبض الشوارع هاينات حتى تصدى له العدو بخيله وفرسانه ومدافعه وقرانه، وقد صوب بنادقه نحو هن، وهن لا يتأين ارقصهم وتهيدهم، مع أنهم كن مجردة من السلاح ولم يكن بأيديهم سوى الأعلام والورود والريحان، وتطحن الجيش: جيش النساء المصري وجمير العدو الآمن ساعات يشتبه لها الولدان بل الأجنحة في الأرحام، حتى إذا كتبى قوى النساء عين بأكاليل الفخار إلى بيوتهن وحافظى بجيش البريطاني بنصه المحرر وأنكسار جيش النساء المصري المشرف، في سخرية مرة قاتلة.

وتحولت ديار مصر جميعها إلى بركان كبير، فإذا الثورة تنفجر في كل مكان وفي كل بلد كبير أو صغير، وتنزل أشياء من الموتية، ويتصدى لها العدو الغاشم بالرصاص والدفاع، ويتسلق الشهداء بالمحتات، وتهز الأهرامات إلى الإسكندرية إلى مجاز تجري فيها النساء أنهم، وتبجهما كثير من المدن، والجميع ينادون: الاستشهاد والاستشهاد. وينقش العدو ما كانت للثورة في كل مكان وينصب مشاقيه، والشعب يزداد كل يوم حياً وحماساً وعندما بال العدو، وضحاباهة وتكافئه وهو يقدمها راضياً لطهيل الآسي في الحرية والاستقلال، وكأنما عاهد وطنه ألا يغمد نضاله وجهاده إلا إذا تحقق له استقلاله وسياسته، حتى إذا كان شهر سبتمبر سنة 1919 أرسل الإنجليز لجنة مل_dense للتحقيق، وأدرك الشعب ما في ذلك من مراوغة، فظل في نياجه ومظاهره وظل الإنجليز يعقدون
محاكمةهم العسكرية وما تقتضيه من الأشغال الشاقة والإعدام، وظلت قوات الثورة متصلة حتى أعلن الإنجليز تضحيتهم 28 من فبراير سنة 1922 وفيه أعلاماً انتهاء الخلافة البريطانية على مصر واعترفوا بها دولة مستقلة ذات سيادة، وكان ذلك نجاحاً كبيراً لثورة سنة 1919 وإن كانت لم تنجح في إجلاء الإنجليز عن البلاد، وبذلك ظلوا يتدخلون في شئون مصر، وظلت لهم السيادة فعلا وإن ألغيت قولاً ومن الحق أن هذه الثورة كانت صفحة جميلة في الجهاد والمقاومة سطراً أبناء الشعب المصرى الأبطال بمداهم الزرقاء، أبطال مجهولون ضحوا بأرواحهم لينال الشعب حريته وسيادته واستقلاله، غيّر حافلين بذكرى أو شريدة، إما شيء واحد الذي حلفوا به أن يحققوا لأمّهم ما تبغيه من الحياة الحرّة المستقلة الكرامة، وقد مضوا يستقبلون الرصاص و ثوران المدافع في شجاعة وبسالة حتى امتلاك المدن الكبرى والصغيرة دماء. وكلما أمعن الإنجليز الغادرون في القتل والحكم بالإعدام والسجن واريّف الآثام أمعن أبناء الشعب في التضحية وبذل الهج والأرواح. وظل ذلك أشري متعاقبة، والرصاص يدوي، والشهداء يتزاحمون على حياض الموت وجبال إشراق في سبيل الحرية المهدية، حتى أُحالوا هذه الدورة في تاريخ مصر العربية إلى دورة بطولةً، لاتقل عن دورات بطولاتنا التاريخية شأنها.

وإذا كنا نذكر من الحديث عن بطولات العرب في حروب الروم والصليبيين والمغول ونلتزم فيها الفخر والقدوة المثلى فأحترمنا نحن نتحدث عن بطولات المصريين في هذه الثورة، وكيف فضّوا بها عزلاً
لا يحملون شيئاً من سلاح أو عاقلة سوى الشعور بالعزة والكرامة وما ينبغي أن يُعرَد عليهم من الحرية والاستقلال، ومن المؤكد أنا حتى اليوم نستلهم هذه الثورة الدامية، وكأنما كانت الفجر الذي انبعثت منه ثورات العرب ومقاومتهم في كل مكان للمحتلين أو كأنها تأديب تاريخهم الحي الحديث. ويحقق أكثر شعراؤنا وشعراء البلاد العربية من الإشادة بأبطالها المجهولين وما ضربوا من أروع الأمثلة في الفداء والتضحية، من مثل قول أحمد محرم في استشهاد الثائرين وخوضهم غمار النار والرصاص:

١٢٨

يمشي الشهيد على الشهيد وإنما يمضي على آثار الرفاق ويتبع ويح الركاب والنواعب هاجها عادي الفراق فذاهب ومشيع يا مصر أنت لكل نفس مطلب جلّل وأنت لكل قلّب مطمع تحمين بالقتل النفس فلأنا تطوى لديك ولا الدماء تضيع وهو بصور كيف كان الشباب يرى مصارع أقرانه، فلا يهدّ ذلك ثورته بل يفعل حفظته، ويقدم بدوره لتكتب له الشهادة مثل
نظرائه، ويتكاثر صرعي الثورة، ويتكاثر الراحلين والمشيعين، وكل يزيد أن يقذى مصر وطنه بدمه ومهجته الغالية. ويحيى خليل مطران أرواح هؤلاء الشهداء بقصيدة بالغة التأثر، وفيها يقول:

تحية أيها القتلى وتسليا بلغتم الشاهو تخليدا وتعبطا لا يعبد المرء ربًا ولا وطناً بمثل إغلاائه القربان تقدمًا يحفظ العظم منكم دون بغيتكم فتصبرون وياي العزم تحطيا ليس الشهادة إلا من موت على حق ومن لا يطالب فيه ما سيا للمشترى بصيباه عزيز أمه ذكر يديم اسمه بالشجاعة هم يبالون تقتيلها ونكليا وهو يشيد بما بذل الشهداء من مهجهم بلذلها في الذروة في التضحية والتفادا، إذ قدموا أغلب ما يملكون لوطهم المعبد، قدموا أرواحهم راضين، لا يهمهم أن تعزم عظامهم، بل إنهم ليصرعون على هذا التحطم، بل لقد عقدوا العزم عليه. وذلك هو الاستشهاد الحق الذي يستعذب فيه الشهيد كل ما يساهم من عذاب حتى القتل وسفك الدماء، وإن أساء هؤلاء الشهداء الذين اشتروا عزمهم وكرامتها بشبابهم الناصر للكتب بالبر، بل إنها لتحذير حفراً في قلوب الأجيال التالية. وحقاً لآينال قوم حريتهم ولا يصبحن جديدين بها إلا إذا لم يبالوا بما قد يصبحون من تفتيش وتجريح. وكان منهم مثل هؤلاء الشهداء البررة.
وكان هذه الثورة العاتية بمصر الشعلة القوية التي أضاءت للعرب طريق الثورة على المحتلين الغاصبين في ديارهم المختلفة، وكان الإنجليز قد احتلوا العراق عقب الحرب الكبرى الأولى وأخذ العراقيون يقاومونهم منذ وضعاً أقدامهم في البلاد، حتى إذا كانت سنة 1920 ثاروا عليهم ثورة عنيفة في الجنوب والوسط والشمال وفي أنحاء نهر الفرات المختلفة وفي النجف والكوفا والحلة والربيته، وفرز الإنجليز الباغون إلى الرصاص والثائر، واستبدل الشعب في جهاده ونضاله استبدالاً رافعاً، وظل الشعراء يحسونها ويشيرونها للنضال من مثل قول الجواهرى محاطباً الثوار:

أسيافكم مرهفة، وعزمكم متقيٌّ
هبو كفتك فرحاً، أخبار من قد رقدوا
هبو فن عرينه كيف ينام الأسد
ثورةُ بل جمرة لحارب لا تخدم
أجْجها آباهم والحر لا يستعبد
والجوهر يقول للثوران إن العزم في قلوبكم والسلاح بأيديكم، فهيا للتكيل بالأعداء حتى لا يكون شانكم شأن النائمين الفاقدين، وهل يغفل الأسد عن عرينه وينام؟ وإنها لثورة مثلها، بل جمرة مشتعلة للعرب لا تخمد ولا تنطلي، أشملها أجاج آباءهم الحربية القديمة وانتفاضة الحر الألى على مستعده الذي يسره انتفاضة تحققها حقاً. غيّر الإنجليز خذَّروا العراقيين بحكمهم وطنية أقاموا عليها فيصل بن الحسين
ونادوا به ملكًا على العراق في غير ملك حقيق، بل في ملك مزيف
يندده جيش الاحتلال، وظل الإنجليز الباغين يروعون الشعب
معاهدات تغلبه وتطوق عنته، وللمظاهرات تتولى من حين إلى حين،
والشعب غاضب حائمًا حقًا شديداً.

وبيًا كان العراقيون يقومون بثورتهم على الإنجليز واحتلالهم البغيض
لستة 1920 كان الفرنسيون يحاولون احتلال لبنان وسوريا، وقد اعتذروا
بقومية عنيفة وخاصة في سوريا، فإن الحذاء الفرنسيو "غورو" حين
زحف يحدها نحوها فصادًا فتحها تصدى له الجيش السوري
في ميسلون بجوار دمشق، وكان يقوده اللواء يوسف العظمة، فصمم
هو ومن معه من الجيش أن يظلوا صامدين في قتال الفرنسيين حتى الموت،
وكان عددهم قليلة فخروا صرعى في ميدان الشرف والجهاد. ويقول
خليل مردم من قصيدة يصور فيها استساله هو ورفاقه في القتال
دفاعًا عن الوطن المقدس:

هوى وحُلته حمراء من دمه
كالشمس حين هوت في ثوبها الجادي
صدبان لم يضْرُّ حتى عب من ذيه
والله نفسه له ريثان أو صادي
ففي فتية نفروا للموت حين بدأ
جريدةً من زرافات وحاذٍ
 صلى الله عليه من مجدلاً
أشلاءهم بين أغارٍ وانجادٍ
وهو يقول إن يوسف العظمة خرج صريعاً وحلته عاطرة بدءه كأنه
الشمس تغرب في ثوبها القاني، عطشان لم يطأ غلة ظلمه إلا دمه الغالب
ويتحسر عليه مرتين وظاماً. ويشيد بصحبه الأبطال الذين تفرؤموه
للنساس جماعات ووحداناً، يريدون تفدية الوطن بمجهم وأرواحهم
ومدائمهم، ورغم يدعو الله أن ينزل هؤلاء الصريع الذين تثارت
أشلاءهم في الأغار والأنجاد منزل القريبين في علّيٍّين. وانتهى معركة
ميسلون نهاية فاجعة، فقد احتل الفرنسيون سوريا وظلوا بها حتى سنة
1945، ومازال السوريون يثورون بثورات عارمة حتى اضطرهم
إلى الابتعاد.
وكان البركان المصري قد ثار، وظلت حممه وشعله تتدافع
والشعراء من أمثال شوق وحافظ يستدلون الشباب على جهد الإنجليز
مستحقين عزامه في مغالبهم، حتى تكشف سحابهم السوداء عن
سياء البلاد. ومن خير ما يصور ذلك قول شوق في سنة 1924 حين
أطلقت طائفة من سجناء الشباب وردت إليها حرثاً، وكانت
قد وجهت إليها تهمة التآمر ضد المختلين الباغين:

يا مصر أشبال القرين ترعرعت
ومستً. إليك من السجون أسوداً
طلبا الجلاء على الجهاد مشوبة
لم يطلبوا أجل الجهاد زهيدا
وجد السجين بدأ تحطم قيده
من ذا يحطم للبلاد قيودا
ربحت من التصريح أن قيودها
قد صيرمن من ذهب وكن حليدا
أو ما ترون على المنابع عدلة
لا تنجل على الضفاف علينا
وعله ما دون الجلاء ويومه
يوم تسميه الكيانة عيدا

وشوق ينهو بأشكال الشباب الذين خرجوا من السجون ليوماً كامراً
ويقول إنهم يتحملون ما يتحملون من عذاب السجون في سبيل الجلاء
الموعد، ويالم أن يحمل السجين قيده ولا تحطم القيود الملفة حول
رقب البلاد، قيود الاحتلال البغيض. ويسخر من تصريح 28 فبراير
لما يعمل من قيود الحماية، وكلما في الأمر أنه طلاها بذهب طلاء
كاذباً، إذ لازال جنود الاحتلال تعيش في البلاد فساداً ولايزال يسيطر على
أداة الحكم محتلاً ضفاف النيل من منبعه إلى مصبه. ويهتف شوق
ستظل مصر معزومة حتى يتحقق لها الجلاء، وإن يوم ليوم عيدها
المأمول.
ويظل شرر البركان المصري يتظاهر في الدمار العربية، ويسقط بعض منه في المغرب الأقصى، فيثور الريف في شاليه بزعة المجاهد الكبير محمد عبد الكريم الخطابي، وسيران ما ينازل جيش إسبانيا ويسقته في غير موسم، وتنزله فرنسا، ويظل تضامنه في سبيل تحرير بلاده مختبداً من سنة 1924 إلى سنة 1926. ويقدر بأحترام الاستعمار بعد أن أبلى هو وجنوده بلاء عظيماً، كان له أعظم الأثر في اشتعال الرغبة الوطني والقوى في المغرب جميعه، وقد هرب كثير من الشعراء يستجيبون الشباب المغربي ويحضرونه على حرب الباغين المعتدين بالقصائد والتانوديات الحماسية من مثل قول أبي بكر بناني في تشيد يه القلوب:

يا بني المغرب هيا للقتال واستعدوا للرغبة قبل النزال
أنتم والله شجعان الرجال واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بني المغرب هبوا هبة واضربوا وجه فرنسا ضربة
ذكرها يبقى عليها سبعة واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بني المغرب موتوا شهدا لا تعيشوا تحت إذلال العدا
مزقوا الكفر وأشراك الردى واسألوا الله انتصار المسلمين
وبنائي يصرخ في شباب المغرب أن يتقدم للقتال متخذاً عدته من السلاح مسجلاً ما يتصفون به من الشجاعة والبسالة، حتى يضربوا العدو الضربة القاضية، وإنه ليطلب إلى الشباب الاستشهاد في سبيل
135

طين المدقى وماغشية من ذل الاحتلال وأن يمزقوا الفرنسيين شر ممزق،
لى تعلوية الإسلام ويتحقق له النصر المبين.
وأما يلبث جبل الدروز لسنة 1925 أن يثور بدوره على الفرنسيين
زة ضارية وتثور معه دمشق وبلدان سوريا، ويخوض السوريون
في المستعمر ثورة حامية، يسلط فيها على الثائرين مدافعه ورصاصه
يراهن ويردو صواعق الموت أمامهم، ويبرامون على النضال والجهاد
فحين بأرواحهم في سبيل ما يبتغون لوطهم من حرية واستقلال.
ثار نظامهم الواقع الشعراء لا في سوريا فحسب، بل في جميع البلاد
عربية، وشرقية بديعة لهذا النضال يقول في تضاعيفها مسيدًا
بسالة دمشق وأهلها الأحرار:

بلاوطن في دم كل حر يذ سلفت ودين مستحقٍ
من يشق ويشرب بال الدنيا، إذا الأحرار لم يشقوا
ولا يبني الممالك كالضحايا ولا يحق
فني القتلى لأجيال حياة وفي الأسرى فدى لهم عتق
والحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق
جراكم وجلال بنى دمشق وعز الشرق أوله دمشق
ويقول إن كل مواطن حز يشعر بأن لوطته عليه يداً وديناً
ينبغي أن يؤديه من دمه مورداً أعداءه حتى نفهم، وإن الدول لا يبنها
ويرفع بناءها شاهقاً في السهاء مثل الضحايا الذين يفدونهم بهجومهم ودماؤهم.
مستندين بذل تحقيقها السلبية من أيدي أعدائها الباغين. وإن قتالهم ليقدمون للأجيال التالية حياة كريمة، وتهمهم الأسرى وما يتحملون من ألوان العذاب، ويقول إن الحرية بابا لا تفتحه إلا الأيدي المضرة بالدماء، ويحيي أهل دمشق وضامته الذي يقسم عزتهم وكرامتهم بل كرامته الشرق كله وعزته.

ومنذ سنة 1911 كان الليبيون يقودون حركة مقاومة عنيفة ضد إيطاليا، وسررت مقاومتهم الثورة المصرية لسنة 1919 وما تبعها من طلب شواطئ متقدمة، حتى إذا كانت سنة 1931 قاد بطل طرابلس الخالد عمر المختار مقاومة، وأُحالتها إلى مقاومة مسلحة، وظل يقاتل الطلبان ويصارعهم حتى تمكنوا من القبض عليهم وأعدموا شنقاً، وارتكبوا في إعداده طريقاً بشعة متوحشة، وكان لذلك رئة غضب وسخط بعيدة المدى في البلاد العربية، عبر عنها شوق في رثاه محاولاً أن يثير الشعب الليبي لفقر الباغين الظالمين:

ركزوا رفاتكم في الرمال لوائٌ يستهلِّض الوادى صباح مساء ياويحهم نصبه عرفاً من دم يحوي إلى جبل الغد البغيض جرح يصبح على المدى وضحته تتلمس الحرية الحمراء بأيونها السيف المجرد بالفلا يكسو السيف على الزمان مضاء في ذمة الله الكريم وحفظه جسد ببرقة وسّد الصحراوء وهو يقول إن العدو أتى يمنح عمر المختار من حالي إلى البرامال.
وأكثرا نصب به لواء يستنير به عزيمة الليبيين كي يقتصوا منه ، وياوينهم ، بل لقد رفعوه أمام عيون الليبيين مبارة يقطر دماً ، وللأن يتأروا له يوماً . وإنّه جرح في الصميم يصرخ في أعقابهم أن يلمسوا الحربة التي لا تحقق إلا بالتفصيحات والدماء تسيل أهباراً ، ويخاطب عمر المختار قائلاً إنه سيظل في ثراه سيفاً مسلولا يملأ سيفه ملء موطئه مضاء وحيدة ، ويقول في ذمة الله وحفظه هذا الجسد الطاهر المست في تراب الصحراء . وتظل مصر تقاوم الإنجليز مقاومة عنيفة ، وعيباً يحاولون تشديد قبضتهم على البلاد ، إذ كانت دامّة الثورة عليهم ، حتى إذا كانت سنة 1935 تزداد العنف شدة ، وسقط بعض الطلاب صرعى رصاص العدو الغادرين ونيرانه ، واضطر الإنجليز إلى إبرام معاهدة سنة 1936 ، وكانت بدورة مثل تصريح 28 من فبراير تقوم على دفاع إنجليز عن مصر في حالة الحرب وتقدم مصر لها موانئها وطرق موصلاتها وطاراتها كي تستخدمها كما تشاء ، وكأنما الدماء التي سالت أهباراً ذهبت هباء . ولا نصل إلى هذا التاريخ حتى ترتفع مقاومة عرب فلسطين ضد الصهيونية والإنجليز إلى الذروة ، وكان وازراً زعيم الفكر الصهيوني قد حصل في سنة 1917 على وعد بلفور الذي تنهى به الإنجليز الآمن أن يكلفوا للصهيونيين وبناءً قومياً في فلسطين ، ووضعت الحرب الأولى أوزارها ، أثبتت البريطانيين فيها أقدامهم باسم الاستطاد ، وجعلوا على رأس دارتهم لها مندوبياً سامياً يهودياً ، أخذ يشجع هجرة اليهود إلى فلسطين . وتبني العرب الفلسطينيون إلى ما بقيت لهم ، فأخذوا يثورون على الانتداب البريطاني ووعد بلفور منذ سنة 1920 ، ولكن الاستعمار
والصهيونية مضيا في مؤامراتها الدينية، فأنشئت وكالة يهودية فلسطين لتنظيم الهجرة، والاحتلال اليهودي، مدين الساحل الفلسطيني، وأنشأوا بلدة تل أبيب، بحراً يافا وجعلوها مركزاً لوكالاتهم، ولم يلبثوا أن شكلوا جماعات إرهابية عسكرية، والفلسطينيون يصداهم كل يوم باستخدام لاختراق، وتزداد مقاومتهم له، ويؤيدهم العالم العربي، غير أن حكوماته كانت لا تستطيع أن تقدم لهم شيئاً، فقد كانت موزعة بين النفوذ البريطاني والفرنسي والإيطالي، وكانت مشغولة بمشاكلها، فلم تستطع أن تقدم لعرب فلسطين أي عون، وظلوا وحدهم يقاومون الاستعمار البريطاني والصهيونية اليهودية، حتى إذا كانت سنة 1936 تحولت مقاومتهم إلى ثورة عسكرية مسلحة، دمرت كثيراً من المشآئات العسكرية البريطانية. ونصب الإنجليز مدافعين يحصون زهات الشباب البائعة، كما نصموا سجونهم ومحاكمهم العسكرية لا في هذه السنة فقط بل منذ العقد الثالث من هذا القرن، والشباب يستنسل في مقاومته باذلاً مهجه وأرواحه الغالية فداء عزيزاً لوطنه المقدس. وتتجسد في أثناء ذلك بطولات رائعه، لعل إبراهيم طوقان شاعر فلسطيني خير من صورها، ويتلاحق في ديوانه صفحات هذا التصوير، ومن أروع ما نظميه قصيدته في تصوير الفلسطيني الذي يحمل روحه على راحته، فداء لوطنه، وفيها يقول:

هو بالباب واقفُ والرَّدَيُ منه خائفُ
فاهديُ ياعوصفٌ خجزلا من جراهته.
صامتُ لو تكلما لفظ النار والدما
قل من عاب صمتة خلق الحزم أبكما
وآخر الحزم لم تزل يده تسبق القما

وإيقول إن الفدائى لا يباب الردى، بل الردى هو الذي يبابوهباب
جراوه وشجاعته التي تشبه إعرضاً ملذاً، وإن أنه ليطرق رأسه مصمماً
على القتل والفداء لا يتكلم، ولو تكلم لكان كلامه تالاً ودماء، إنه
لا يجه الكلام إما يبهه العمل والتفؤذ إلى غايتة المثلى من التضحية والقتل
والقتال. وظلت بريطانيا أنها تستطيع وقف المقاومة الفلسطينية بوضع
مشروع تقسيم لفلسطين في سنة 1937 ولكن العرب الفلسطينيين
إذدادت مقاومتهم واتسع نطاق المعارك، فاضطرت بريطانيا إلى إعلان
تخليها عن مبدأ التقسيم الأثيم.

وقد وقفت الحركات الثورية العربية في فلسطين وغير فلسطين مع نشر
الحرب العالمية الثانية إلا ما كان من حركة رشيد الكيلاني في العراق سنة 1941
على أنها سرعان ما أخفقت، وكأنا كانت البلاد العربية تتنتظر نتيجة
الحرب حيث إذا انتهت أخذ كل بلد يعد إعدة للانقضاض على المستعمر
وطره من البلاد، وأول بلدان نحقق لهما ذلك سوريا ولبنان، وكانت
فرنسا قد أعلنت استقلالهما في سنة 1941 مراوغة وكسباً للوقت،
حتى إذا كانت سنة 1946 ثالثاً استقلالهما وررد إليها حربهما
المفقودة ثمرة لجهادها المتقدم. ومضت العراق تكافح الإنجليز،
ويستول هم شيطانهم في سنة 1948 عقد معاهدة معها، وثور الشباب
ويسلط الإنجليز عليه نيرانهم ورصاصهم، ويسقط في الثورة كثير من الشهداء، يتوهج الجوهرى ببطولتهم في إحدى قصائده مصورةً للشباب العراقي الخطوب التي تتظاهر في طريق النضال، يقول:

يوم الشهيد طريق كل مناضل ولا ينسحب ولا أعلام في كل منعطف تلوح بلأمة. وبكل مفترق يدب جمام وحياضموت تنتقى جنباتها وعلى الحياض من الوفود زحام يوم الشهيد بك النفس تفتحت وعيّاً كما تفتحت الأكمام حملوا الرصاص على الصدور وأرغلا فعلى الصدور من الدماء وسام وهو يصور هذا اليوم الممتل في جميع أقطار العالم العربي، يوم نضال الشهيد حتى الموت، ويقول إنه يوم وعر مسالكه، ففي كل منعطف وكل مفترق طريق يقف الموت، والشاب يزاحم على حياضه، وإنه ليوم العروبة الذي تفتحت فيه الآمال تفتح الأكمام عن الأزهر والشاب يعرض صدوره للرصاص، وتسيل الدماء أسماة محمد وعة وحرية وكرامته. وكانت مصر قد انتهفت بدورها وأخذ الشباب ينزل بقليش المحتل في القناة خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، ويزيل الأرض من تحت أقدامه زلالاً.
وأخذت الصهيونية في أثناء الحرب العالمية الثانية نشاط في الولايات المتحدة مستغلة تنافس الحزبين الديمقراطي والجمهوري في الحملة الانتخابية، مما دفع نورمان إلى إصدار بيان دعا فيه إلى فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية، واستطاع الصهيونيون أن يسسوا قوة عسكرية كبيرة تابعة لوكالة اليهودية. وفي سنة 1944 قامت الجامعة العربية، واهتمام ميثاقها بشكل فلسطين، ومراعان ما قررت مقاطعة يهود فلسطين اقتصاديا، وحاولت جاهدة استثارة الضمير الأمريكي والإنجليزي في استشاع حقوق عرب فلسطين ولكن دون جدوى. وأخذت بريطانيا تعمل على خداع العرب، فتعلقت عن القضية لمصرة الأمن. وقامت في سنة 1947 لجنة دولية للهيئة تقريراً يقترح تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية. وأثار هذا الاقتراح الذي وافقت عليه هيئة الأم تمارة الأمة العربية، فتشتت المظاهرات في القاهرة وغيرها من دول العربية الكبرى وكون عرب فلسطين جيش التحرير العربي، وأعلن الصهيونيون قيام دولتهم اليهودية: إسرائيل. أصبح الفلسطينيون وجهًا لوجه أمام الإرهاب الصهيوني، وناضل عرب فلسطين منذ أول سنة 1948 نضالاً دموياً محتماً عانوه في أفواج جيش الإنقاذ الذي رُب في سوريا وتطوعوا كثيرون من الأقطار العربية. وضع الإنجليز أبيهم في أيدي اليهود، فظلوا عن تل أبيب والمناطق اليهودية ليستول الصهيونيون على المطارات والمرافق العسكرية، على حين ظلوا يحتلون المناطق العربية، وهجم اليهود على الفلاحين في قرية دير ياسين وذبحوا من أهلها الودعين مئات وكذلك تفكروا بقرية ناصر الدين، وتوالت الفظائع الصهيونية الوحشية.
فهاج الرأي العربي العام وطالب حكوماته بالتدخل العسكري لإنقاذ فلسطين. ودخلت الجيوش العربية الديار الفلسطينية تقدمت في جميع المبادئ على الرغم من أنها لم تكن كاملاً الإعداد ولا أمان التنظيم، وباشر مجلس الأمن بمساعي الولايات المتحدة وإنجلترا إلى الاعتراف وأعلن وقف القتال وقيام هدنة بين الطرفين، وأظهر الصهيونيون الفرصة للاستعداد وتعزيز قوتهما الحربية، وعاد مجلس الأمن للنظر في مشروع تقسيم جديد لفلسطين بين العرب واليهود ورفضه عرب فلسطين والجامعة العربية، واستأنف القتال في شهر يولية 1948 بكل الجبهات، وانتصر العرب في كثير من المواقع، غير أن القوة الأردنية انسحبت من بلدي اللد والملة فاحتلها اليهود، وأحدثوا فيها مجزرة وحشية هائلة، وانسحبت في أثناء ذلك القوة العراقية، وكذلك انسحب جيش الإنقاذ في الشمالي، واستولى اليهود على صفد والناصرية، وكثر الاحتياط والمرتدون عن ديارهم وأوطانهم. وركزت القوات اليهودية حملتها على القوات المصرية لإجلائها عن النقطة غير أنها صمدت في مواقعها صمودًا مشرقاً، ولم يلبث مجلس الأمن أن قرر وقف القتال في 15 من يولية لسنة 1948. وظلت القوات المصرية تستبسل في المقاومة إلى أن وافقت مصر على الهدنة في أوائل سنة 1949.

وكان العرب فلسطينيين في كل هذه المعارك يكافحون اليهود ويقاومونهم ويقدمون أرواحهم ودمائهم لوطنهم ضاربين أروع الأدلة في الجهاد والضلال، من مثل عبد القادر الحسيني شهيد القسطل الذي طالما دوخ اليهود بمن كانوا معه من الفدائيين، وأنزل بهم ضربات قاسمة.
وكان من بين هؤلاء الأبطال الفلسطينيين شعراء غذوا الثورة ببطولتهم الحربية وأشعارهم الحماسية، مثل عبد الرحيم محمود الذي كان يعمل بالتدريس في فلسطين ثم في العراق، حتى إذا كانت سنة 1948 ليُدعى الجهد ملتزماً بجيش الإنقاذ، ومازال يغزو مع العدو المعارض وهو يتغنى بالأشعار المهيبة حتى سقط في معركة الشجرة بمجالي الخليل كاتباً بدمه على ثرى وطننا الحبيب أروع قصيدة مؤثرة، حقيقةً بذلك ما تمناه في بعض قصائده من استشهاده في سبيل بلاده، يقول:

أرى مقتلى دون حق السليب
ودون بلادي هو المبتغي
بلدً لأنذني سياح الصليب
ويهج نفسي مسيل الدماء
وجسمُ ثُناءَ جراحاتُ الفَلَك
يجد فُوقُ الهضاب
كما دُمُها الأرض بالأرجوان
وأثقل بالطر ريح الصبا
وعلق منه بعين الجبين
لكن عفارًا يزيد البها
وسمع تصفّي أعمى الرجال
فمُرّ موتًا شريفًا
وهو يُعنى أن يقتل ويسفك دمه دفاعًا عن حقوق بلاده السليمة،
وقد أصبح يستشر في قوة غزيرة النار وحب الدم المسفوح والتشي
برؤيته حتى ليفرح صليل السلاح ومستيل الدماء، وأن يرى من حوله
الشهداء وقد تتلاشت أشلاعهم وتناهست نسور السباه ووجوه الأرض،
وسالت دماؤهم القانية وتناهبت رياح الصبا عطروها، وَتعفر جبينهم
اليوبي بالتراب عفاً يزيد في جبهته وجماله، فذلك في رأيه هو الموت
الشريف موت الرجال الأحرار.
كان الشعب المصري يعاني من الحكم الفاسد ومن الأحزاب، التي دامت كرامة الوطن في سبيل الأرباع الجائحة، وأنّه مضت تكميم الأفواه وتخد من الحرية مكنة حواشي قصر عابدين من التفتيش في الحكام، متزامنة على حواشي قصر الدوارة الإنجليز، متغافلة عن مطالب الأمة في الاستقلال والحياة الحرّة الكريمة، ويلوّح الحقّ الذروة وتموج الصدور بالحفيظة، وإذا فورتنا الخبرة تبين في 33 من يوليو لسنة 1952 معرفة عن إرادة الشعب، ويثابي فاروق والأحزاب الفاسدة والاستغلال والقطاع، وتُدبّ إلى الشعب حريته، ويتخذ الأسباب لحياة اشترائية سليمة، ويتغنى شعراء مصر بالثورة مبهجين من مثل قيل عباس العقاد:

أهلا بنيوز وليد أهلا بملياد سعيد
يوم جديد قلت بل عهد على مصر جديد
عهد تضان كرامة فيه وتتبعها جهود
لا تستنج ولا تثب الم على الهوى سوم العبيد
ما كان غير الصالح بين لهم قرار في الموجود
مصر الكبيرة كعبة قررت على حصين وطيد
والعقد يتمثل الثورة عيدا كأعياد النوروز أو بعبارة أخرى كأعياد الربيع، وإن لم يلد حياة جديدة وعهد مشرق باسم تسان في كرامة
مصر التي طالما حمدها القصر والإنجليز والحكام الفاسدون، عهد تتحرر فيه من الذل والاهو والعبودية، ويقول إنه لن يعيش مصر بعد الآن
سوى العاملين النافعين، وإنها تخلية بحياة كريمة، فإنها كعبة مقدسة.

وقد استقرت على أسس وطيدة.

وكان الجيش البريطاني في سنة 1939 قد اقتحم ليبيا، ولم يثبت الإنجليز أن قسموها مع فرنسا وأمريكا إلى ثلاث مناطق، لكل منهم منطقة، فبالنسبة لبرقة وطرابلس، وفرنسا فزان، وأmericا بعض القواعد الجوية في طرابلس. وازالت ليبيا بعد الحرب تتانسل من أجل استقلالها حتى إذا كانت سنة 1955 جلت فرنسا عن فزان، ويقيم أمريكا وإيطاليا بعض القواعد الجوية، وانعقد أمل الشعب العربي الشقيق على الخلاص من هذه الألغام إلى أن قامت ثورة الفاتح في سبتمبر لسنة 1959، فردت إلى الشعب حرية، محطة كل ما كتبه بالاستعمار الأكثرا من ألغام، وحققة له كل ما كان ينتظر إليه من حياة عزيمة كريمة.

وإذا التفتنا إلى أفقي الشمال الإفريقي، وجدنا الملك محمد الخامس يقود شعبه لنضال فرنسا نضالا عنيفا، من طريق المظاهرات والجمعات والملتات التالية في الصحف والخطب الملمحة، وكانت له موقف عظيم ضد الاستعمار الفرنسي جعلت العدو ينفيه عن دياره، وثارت البلاد ثورة ضارية فاضطرت فرنسا إلى أن تعدها إلى وطنها، وأن تعطي المغرب استقلاله سنة 1956، إذ أخفقت في كل ما تناجلته من وسائل القمع والإرهاب. ونلتقي في أثناء هذا النضال بشكر كثير يشفع الشعب للمقاومة والثورة على العدوالناصب من مثل قول محمد الجلدي:

"عن يميني وعن شالي قبئ وأمامي جيل معنى شريد..."
بتلاشي مع الزمان ويفنى ويعاني ما لا يعاني البعيد
ضرب السد حوله وراه بسهام الردى قريبةً عتيقً
وكان المغير أمضى عقودًا مع هذا الزمان ليست بعيدًا
وكان الشباب منا هباء ونفوس الأُحرار شيء زهيد
وهو يصور القيود والأغلال التي وضعها المحتل الغادر حول الشعب
واغتصابه لطبيعته أرضه، حتى غدت أفراده في ديارها مشردة تعاني
منرق الجوعة، وقد ضرب من حقاً نظائراً. ومايزال يرميها بسهام الموت
وكأنها عاهده المهدء عليه لا ينتهي أن يظل مسيطر متحكماً. وكان
الشباب ليس شيئاً مذكوراً، وكان نفوس الأحرار لا قيمة لها ولا وزن.
ومن قديم كانت توس عاجزة فرنسا جهاداً مستميتاً، وتغفي جهادها
والآخرين شاعروا المبدع الشاب، ولا أشعار كثيرة يصوخبها حراباً مسموة
إلى صدر المستمر العاشم، مستثناها هم شعبه لكفاحه، مستثناها
حيمته من مثل قوله الدائر على كل لسان:
إذا الشعب يوماً أراد الحياة
ولا بد لليل أن ينجل
من لم يعانقه شوق الحياة
كذلك قالت للكائنات
وحدثن روحا المستمر
وفرق الجبال وتحت الشجر
وبدمت الريح بين الفجاج
إذا ما طمحت إلى غاية ليست المنى وخلعت الحذر،.
ولم أتخوف وعور الشعاب وراكة اللهب المستعر.
ومن لا يحب صعود الجبال يعيش أبد الدهر بين الحفر.
والشاعر يقول إن الحياة الحرة إرادته، والشعب لا ينالها إلا إذا صحت.
إرادته على أن يحياه، وحينئذ ينزل القدر على إرادته المصممة، فينجل.
الليل الكئيف وينجاب سواده عن الأفق وتبختم القيود والأغلال.
ويقول إن من لم يحس الحياة إحساساً متعاقداً يصبح فيها هباء لا اسم له ولا ذكر.
ويصبح: هكذا حذبته الكائنات هامة في وعيه.
بل إن الريح لتندفع بذلك وترجع في كل مكان قائلة إنها إذا ما طمحت.
إلى غاية وضعها نصب عينها منصمة على الظفر بها نافضة عنها. كا.
خوف وحذر، فلا الشعب الوعرة تخفها ولادفعة النار الملتهبة تصدها.
وتلك سنة الحياة، كل شخص وإرادته وعريته وهمته، فلن يحب تسم القمم وارتفاعة الذي عاش في الحفر وهمواي الحياة عيشة.
الدليل المبين.
وتضحى ثورتنا الجيدة في بناء حياة الاستقلال الاشتراكية، وتعليم حرباً
شعواء على المستعمر العنصب لديارنا منذ سنة 1882 وتصميم على إجلائه،
ويحلو خانعاً عن بلدنا، فيحقق أملاً عظيماً، بل حلم رائع، طالما حلم
به الشعب. ويصبح يوم هذا الحياة عيداً عظيماً من أعيادنا، ويلحقه.
عيد ثان هوعيد تأسيم قناة السويس، وتنزع إنجليزيا وفرنسا وعيلهما إسرائيل.
ويهجرون هجومهم الغادر على بورسعيد سنة 1956 ويبث أهلها.
شيابا وشابات ونساء للناضج، وسرعان ما ينزلون بالأعداء، صواعق غضبهم ويتزعمون من هول الضربات والطولات المميتة إلى كاها لام أبطال بور سعيد. وما يبيثون أن يجمعوا فلولهم ويلووا الأدبار إلى غير مات، إلى البحر المتوسط وما وراءه، وقد ركبهم الاندحار والذل والعار. وكان الشعراء في هذه الأثناء يرمونه بشواوشع أشعارهم المتهب من مثل: "دع سباني فيساني معرقة لكمال عبد الحليم، ونشيد: "أنا النيل مقررة للغزاة، محمد حسن اسمايل ونشيد: "الله اكبر فوق كيد المعتد، لعبد الله خمس الدين. وهي أناشيد تصور ثقات المصريين في المعركة حتى الموت، وحتى يصفعون بالأعداء ويديخوه بعقولهم الأئم. ونظم كثير من الشعراء قصائد تصور هزيمة الأعداء الساحقة ورجل أشباحهم النTHON من البلاد، والعمر يجلبهم، فقد جاء وايكر شرون عن أنيهم الحداد، فخطفناه تخطوا باستبالتنا وذيانا عن وطننا ذياداً وذهنا في الهيج فداء له وحريته وعزمه. حق في يدنا وقوة في نفوسنا مرقنا بهما العدو كزمياً، وكان أول تزويق ميت له ما ألقنهاه بيندود المطالات أو بعبارة أخرى ما ألقهته بور سعيد بهم، فقد قنصت سرهم الأول وأتت عليه، واستدارت للغزاة اللام تحصل رؤوسهم حصاداً، وكأنها كانت شباك كبرى لا يلبثون أن يعتروها في خيولها ويتصادوا صيداً ويلبجوا ذبحاً، وذلك تاريخ مصر، مقتة دائماً للغزاة على مر العصور ما يجري حدودها وأطرافها من أبنائها الشجعان الأبطال. وصاح في وجه الأعداء كثير من شعراء البلاد العربية يضرون حفيظة الشعب ويلبون نضاله تارة بالقصيدة ونيرة بالشعر الحر الحديدي على
شاكلة منظومة نزار قباني التي وضعها في شكل رسائل من جندي مصري إلى أبيه أرسلها من ميدان المعركة حيث تمتزج البطولة بالجراح والسلاح، وتضفي رسالته الثالثة على هذا النطاق:

الآن أفنينا فصول الهاضبين
أبتاه لو شاهدتهم يتساقطون
وترى قراصنة البحار الإنكليز
كثار مشميتة عجوز
يتساقطون... يشارحن
تحت المصاطل الطعينة مثل مشنوق تدل في سكين
وينادق الشعب العظيم تصيدهم زرق العيون
لم يبق فلاح علي محراثه إلا وجاء
لم يبق سكين ولا فأس ولا حجر على كتف الطريق
إلا وجاء
 يريد قطاع الطريق
ليخط حراً واحداً حرفاً بمعركة البقاء
والرسالة تعلن فناء الهابتين من المصاطل والأسطول الإنجليز.
وهم يتساقطون كأوراق الخريف وينادق الشعب تحصدهم في الأرض
كما تخصصهم في الجو، الشعب المصري ذو الإدارة الجبارة الذي لم يبق منه فلاج إلا وفاج، ولم يبق عند مصري سكن. ولا فاس ولا حجر إلا استخدمه في المنظمة العنيفة، ليد قطاع الطريق ويسحق ضلوعهم سحقًا، وليخط حرفًا مضيئًا منيرًا في معركة البقاء.

وظل العراق معتلاً بالإنجليز العاملين إلى أن قامت ثورة يوليو سنة 1958 لم ثورة فبراير سنة 1963 فنفست عنه الاحتلال. وغذ في بناء حياته بناء مستقل، إذ ردت عليه حربرته وسياسته. وكان البركان الجزائري قد تفجر منذ سنة 1954 وأخذ يقذف بحمه وسويله في وجه المستعمرين الفرنسيين وجوهذ يشويها شيئاً، بل لقد أخذ يحرقهم في أثوبه حرضاً، وامتد الحرق والموت، وليب البركان يزداد كل يوم أواه، والمستعمرين يجنون ويرس Merchants لو الجيوش، وتجرع أمر غزاص الحرب والقتال، وكأنها تحولت الجزائر إلى مقبرة كبيرة لم، بل إلى جمجم يأوي عليهم جماعات وأفرادا، وأبطال الجزائر ثايوت متسللون قد أشرعوا حياتهم وبدلها ليحققوا لوطنهم استقلاله وسواطده المهرة، ولا نصل إلى سنة 1962 حتى تهد إلى البعي والوداد، ولا يجد المستعمرا أماه سوى الاستسلام، فيد صاغراً إلى الجزائر حربًا واستقلالها، ويخرج منها مهروعًا مدحولاً إلى غير رجعة. وكان شعراء الجزائر يضرون لهب هذا النضال المجيد بأشعار حماسية نارية من مثل قول محمد السماح على لسان ثائر:

يا رفاق في الذرى في السجن في القبر وفي آلام جوعي
يا جنون الثورة الحمراء بجتاح كياني ومغارات ربوى
أقسمت أن تغسل الجرح وتغدو شعلة تضم أحزاد الجمع
ومهمة ينادي رفاقه في المعركة الممتدة إلى ذرى الجبال وفي أئام سجنه
وعزابه كي يضرَّوا العدو الضربة القاضية، وينادي جنون الثورة
الدامية التي يجري في كل كيانه وفي كل مغارات بلاده حتى يتأثر
لكرامة الوطن السلبية. ويقول إن أمه أقسمت بمقداسات أبطال المعركة
وإسماعيل، أقسمت بقيدهم وآلامهم وجروحهم، أن لا تسمن من عينه
الدموع، وأن تغسل الجرح الدامي مستبشرًا، وتحول بدورها مثل كل
جزائرية إلى شعلة تلهب أحزاد الشباب. ويرفع صوت شعراء العرب
في كل قطر مصر والجزائريين وموقدين حميمهم مهددين المستعمرة.

وعتدي شفقرات سيف الطغاة تطبق منك على المقطع
فأنشدود المجد ما وقعت على غير أوردة تُقطع
وخلل النفوس العذاب الصلب تسيل على الأسل الشُرّاع
فسارية العلَم المستقل يغدير يد الموت لم توزع
جزائر يا جدت الغاصب بن بوركت في الموت من مربع
جزائر كيلي بصاعٍ حقود عم في ضراوته مقدع
والجواهر يزيد للجزائر أن تقدم على مذبح الحرية نفسها لنشرها.
السيوف، وتحمل بعض أبنائها أشلاء، فقالوا لا تتنا مجد إلا إذا قدمت للقتل أفلاذ أكبادها، وسالت دماؤهم الملوحة قوة وصلابة على أسما السيف والرماح، فعلى أشلاءهم وبرك دماؤهم تزخرُ سارية العلم المستقل الظافر. وهتف بالجزائر أنها تحولت قبلاً كبيراً للفرنسيين الغاصبين، وهي تكيل لهم الصاع صاعين، صاعٍ حقود عمٍ في ضراوته، يطبع، فيصمي، يبتين، وشالاً. وتنصر الجزائر وتأخذ في بناء حياتها الخرجة الاشتراكية الجديدة.

وتدور بالعرب الأيام حتى يوني 1967 وتعتدى إسرائيل على مصر والأردن وسوريا والحماية تبلغ الذروة، وكل عربي يؤمن بالنصر واسترداد الوطن المقدس الذي اغتصبه الصهيونيون. وارتفع صياح الشعراء يحمسون ويَرْجِعون هيب النضال في نفس المهاجرين بعد أن رفض الشعب العربي بكل قوته الهزيمة بسماً منذ التاسع من يوني. أن يحاو آثار العدوان محراً، ففي ذلك يقول محمود حسن إسحاق:

سيظل ينْفَس في عروقي نارها حتى تكبر للصباح ديارها حتي يداها ملحمت بيدنها، وها يفلك من القوى إسوارها حتى يهلل فرحة شهداؤها للنور، يحمل فجره أحرارها حتى تُمْرِج بالفياشق حميدة عربية لا يستريح أورها حتى يبيع الغاصبون بأرضها، وببده فوَق رفاههم أورها فالشاعر مولد لفلسطين، يقول إنه سيظل يأكل حق التأريخ،...
حتى تتألق بأشائر الصباح المشرق بالنصر الحاسم في أرضها، وتزرا أضواء ضحاء في جنابات ديارها، وشعلة الحرية تتحرك قيدها بين خليل الشهداء وفرحهم بالنور الغامر الذي فجره أحرار الروعب الأبياء، وفيقهم وكتائبهم تتأور وتزعم مدة للغاصبين الآثرين وقاضية فضاء مبرماً على أوزارهم وأذانهم ومحبة لها ولم كم من الوجود حموًّا.

وراحت إسرائيل تتبعج بانتصارها ومعروف أن انتصارًا في معركة أو معركة أو حتى في حرب لا يعني فرض تاريخ جديد على منطقة وشعباً الكبير، بل لا بد لهذا الشعب من الانتصار الحاسم. وانتهت إسرائيل الفرصة فضة تتحدث عن التسوية والتفاوض المباشرة متعامية ما يؤدي إليها ذلك من كارثة القبول بالوجود الصهيوني والاعتراف بكيان إسرائيل السياسي وسيادتها الإقليمية. وإن العرب في كل بلد مصممون على مقاومة خطط إسرائيل والصهيونيين والممي في الحرب والقاتل، حتى يتزعموا من آيديهم قهرًا ما سلبوا وأغتصبوه. وقد عُرِضت القضية على الأمم المتحدة غير أنها أخلصت في مئات وساويب تبعث القلق وتدعو إلى الحذر، وثقت في تقوس العرب أن الحق المصلوب لا يرده إلا أهله.

ومن التطورات العظيمة التي حصلت بعد النكسة أن العرب فلسطينين اضطرووا بالقضية فعادت إلى أيديهم، وسرعان ما تبلى في أعمال المقاومة العسكرية التي يقضي بها الفدائيون البلاء، مما جعل إسرائيل تستغاث من حين إلى حين بمجلس الأمن باكية مولدة مبكرة عن الدمار واللمع الذي يصبّ في نفسها الفدائيين الفلسطينيين، وقد جاءوا
154

من الأردن ومن كل فئّة يعملون في قلوبهم غضباً كأسلوب النار على من
هبوا أرض الآباء والأجداد وأخرجوا أهلها من ديارهم إلى العراء، حيث
لا مأوى لهم سوى اليأس والضنك والتشريد، بعد أن حولوا بعض القرى
إلى مجازر وحشية كقرية دير ياسين وقرية كفر قاسم، وقرى أخرى عموها
من الوقوع كقرية زيتنا وقرية عماس.

ويالله الصمغ! إنها قصة الوطن المسإله ودم أهله المسفر وطرد
المبتقين ليصبحوا لاجئين. مشرين يعيشون في الخيام، أو إذا
استطاعوا في أواخر من الليل كالخرابات الهجرة، حتى يخفوا وتدوى
أعوامهم، وكأنما يريدون لم أن يعيشوا بدون حياة أموالاً، فراشيم الرمل
وحلتهم السياء. ومن ظلوا معهم ولم يهاجروا بعد سنة 1948 سخرهم
في أعمال وأجور زهيداء، حتى يستكينوا ويدلا، وكل من جاهز أن
يقفه في طريقهم دون تأثر أرضه وطيباتها مزقوه إرباً، أو ألقوه في غياب
السجون. وظفوا أنهم يقضون بذلك على الروح العربية، وخباء ظلمهم
وقتلهم، فقد دفقت ساعة القصاص، وباب الجبل الفلسطيني الجديد
الذي عاش المنحة غريباً عن دياره، هب بعد نكبة سنة 1967 ليرد
كيد العدو في نغره، وقد صمم على النار لأهله ووطنه المباح حتى
تترنح إسرائيل في برك من الدم وتطأتم خانعة متخاذلة. وما يبرز نفس
كل عربي أن الجبل الفلسطيني، الذي نشأ أسيراً في إسرائيل يجمع ويعرى
ويذ факт في زنزانات السجون أشع ألوان التعذيب، ظل صامداً لا يذل ولا
يهر، بل لقد مضى يقام ويتعدى منصب القامة مرفوع الهمة، يتقدمه
صف مرصوص من الشعراء يهدر ويزجر، كسيل من النار، بل
كلهب عاصف يدوى ويدمغ غاضباً لوطنه وثائراً مع الثوار في كل بلد على الاستعمار، مع ثوار الجزائر وثوار العراق واليمن وكوبا، ومع ثورة مصر وجلاء العاصب والسا عالي ومصرة بور سعيد. ويعتنف بهم الصهيونيون ويزجون بهم في السجون، ويطهرون يقاومون في إصرارهم في القيد والسلاسل لا يبالون ولا يهابون، بل كل يوم يزدادون غضباً وحيمية وحقداً ومرارة، فلا غرابة أن تسحق أشعارهم نيراناً مليئة مستمرة على نحو ما نقرأ في أشعار توفيق زياد وسمايح القاسم ومحمد درويش، ولاوليهم منظومة بعد الخامس من شهر يونيما سنة 1967 يقول فيها:

يا بلادي أمي تم نتفة على حفنة ماء
ولذا لن نغرق الساعة في حفنة ماء
من هنا مروا إلى الشرق غماماً أسوداً
بططون الزهر والأطفال والقمح وجبات الندى
وينصون عداوات وحقداً وقبوراً ومدا
من هنا سوف يعودون وإن طال المدى
لا تقولوا لانتصروا
إن هذا النصر شر من هزمه
نحن لا ننظر للسطح ولكننا نرى عمق الجرمه
لنا للمرة الآلف نقول:
لا وُهَق الْضُّوْهُ

مِن هَذَا الْتَّرَابُ الْحَرِّ لَنْ نَفْقِدَ ذُهُرَ
إِنَّا لَنْ نَنْحَنِي لِلنَّارِ وَالْفُلُولَادٍ يَوْمًا قَيْدَ شِعْرِهِ
لَكَبْوَةُ هَذِهِ وَكَمٍ
يُبَدِّعُ أَن يُكْبُرَ الْهَمَامُ
إِنَّهَا لِلْخَلفِ كَانَتْ خَطْوَةً
مِنْ أَجَلِ عُشْرٍ لِلْأَلْمَامِ

وَزِيَادٌ يَقُولُ لِبِلَادِهِ لَا تَيَأْسِي لَمْ نَفْرَقَ بَعْدَ قِيْامٍ إِسْرَائِيلٍ فِي سَنَةِ 1948
وَلَنْ نَفْرَقَ فِي سَنَةِ 1977 وَكَيْفَ نَفْرَقَ فِي حَفْنِيَّةِ مَاءٍ 19 لَقِدْ مَرَوا بِديَارُنا غَمَماً مَّظِلَّةَ مَبَيْنَ كَلِ مَأْمَهِ وَيَسِيلُونَ عَدَاءً وَيَحْقَدُونَ وَمَوْتًا وَخَناَجِرَ مَسْمُوحَةً، وَلَكِنَّهُمْ سَيَعْدُونَ مَدْحَوِينَ مُهْزِمِينَ وَإِنَّ طَالَ الزَّمِنَ. وَيَنْتَجِهُ لِالصَّبْعِيْنِ قَالَ فِيهِ: لَا نَصْبِيَّنَا إِنَّا فَانِئَقْرُمْكَ فِي حَقِيقَتِهِ هَزْيَةً بَلْ شَرِّ مِنْ هَزْيَةٍ; بَلْ وَرَاهُ مِنْ دِوَافِعِ الجَرِيمةِ، وَسَنَظُفُّ نَصْرُخَ مُقَسَّمِينَ بِالضَّمِيَاءِ الْبَاهِرِ أَنَا لَنْ نَفْقِدَ ذُرَّةً مِنُ تَرَابِ أَرْضِيَّةَ الْحَرِّ، وَلَنَنظَفُ أَرْضَ الْتَّنَارِ وَالْحَلِيدِ، إِنَّهَا كَبْوَةٌ وَقَدْ يُكْبُرَ الْهَمَامُ، وَإِنَّ كَانَتْ خَطْوَةٌ للْخَلفِ فَإِنَّا أَعْتَدَدٌ لِقَفْرَةٍ تَبْلِغُ عَشْرَ خَطْوَاتٍ إِلَى الْأَلْمَامِ. وَيَصِرُّ سَمِيحُ الْقَامِ مَنْهِجُ الْعَالِقِ فِي منظومتهِ عِنْ الْفَدَايِنِ؛ وَفِيهِ يَنْفِفُ، وَقَدْ أَسْتَشْهَدُ فَدَايِنُ إِلَى إِحْدَى الْمَعَارِكِ.
خلّوا القتيل مكفنًا بشيابه
خلوه في السفح الخبير بما به
هل تسمعون دعوة نسأ دميا
بين الصخور يغيب عن أحباه
خلوه تحت الشمس تحضن وجهه
ريح مطيبة بأرض شبابه
وعلى السهول الصفر رجع ندائه
يا آله بالي بالي لست بآبه
خذني إلى بني
أرح خدي على اعتابه
وأبوس مقبض بابه
خذني إلى كرم آموت ملوّعا
ما لم أكحّل ناظري بترابه
يا من ورائنا لا تخونوا موعدى
هذي شرايين
خذوها وانسجوا منها
بيآرق نسلنا المتمرد
وسيم يطلب إلى الرفاق أن يطالبوا الشهيد مكفناً ببئابه المضرجة
بالدماء، وأن يدуть في السفح نسراً دامياً بين الصخور يرغب في رفاته،
ولا يواروا جهانه، بل يتركوه في الحر، تحت الشمس تعتق وجهه الرياح
المملحة بشذى أرض شابته، ومن تحته السبول المتزوجون تردد فيما صدى
ندائه الحار: إنني لا أشذ بالموت، فقد مات كأريد في المكان الذي
اخترت، وكل مني أن أودع بين الرياح الأخير وأربح خذيا على
أعتابه وأقبل مقبرة بابه وأكسح ناظراً بكره وترابه، وتجلج منه صيحة:
يا من ورائنا من الرفاق وفنا بالوعد والعهد، وهذه شرابين نحدها
وأنسجوا منها بياير أبنائنا حتى يشاؤوا ثائرين، بل حتى يصبحوا فدائين
يسحنون الصيودين سحقاً، بل حتى يصبحوا أدوات دموية تدمرهم
تدمرها، وتفر فلولهم من جحيم الموت فراراً رهباً.

وبنفس هذه الروح المتمردة العاتية ينسج محمود درويش منظوماته
التي كتبها بعد النكسة، مجدداً فيها الصعود للدوه والثبات
في المعركة حتى يوم النصر القريب، مرداً أن الهزيمة جرح يضاف
إلى الجرح القديم، جرح لا بد أن يعقبه الانتقام، وأن الهزيمة لا تعني
الاستسلام، بل تعني النفوذ من هيئها ألمة نازعة تلدهم على رؤوس العدو
وتخطها حطماً، وإنها ليصبح من أعمهاء:
خسرت حلمأ جميلاً
خسرت لسع الزنابق
وكان ليل طويل
على سياج الحدائق
وما خسرت السبيلاء
فكل ما في النكسة أنه خسر حلاً بالقضاء على إسرائيل في سنة 1967 قضاء مبرماً، وحسر ما كان ينبغي أن ينزل بالصهيونيين من بروق الموت وصواعقه، وكان قد طال الظلم الدامى الذي مددوه على الوطن الحبيب عشرين عاماً، وهو يتظر بفأرة الصبر ساعة النصر الحاسمة، ولكن ذلك كله لم يكسر نفسه فقد بقيت لها قوتها وصلاحية، إذ السبيل لتحقيق الحلم الرائع لا إزال مفتوحاً. وقد اشتعلت في نفس أبناءعرب فلسطين، بل في نفس العرب جميعاً حفدة الأبطال الذين فتحوا العالم وأخذوا لسلطاتهم، نار الغضب، وإن لم تَعله على أيدي الفدائيين في كل بلد عربي. وما ارتفاع ألوية الثورة التحررية في السودان وليبيا الشقيقين وتصفية القواعد الأجنبية فيعظم، وهويلس إلا إرعاض عظيم بالنصر، وإن بشائره تنفق من الخليج إلى الخيط.
النهرس

مقدمة

1)معنى البطولة
2) في الجاهلية
3) في الإسلام
4) في الحروب مع الروم
5) في الحروب الصليبية والمغولية
6) في معارك التحرير

الإيداع 128/1984
الرقم الدولي 4-88-200-777-1
ISBN

طبع بمطبع دار المعارف (ج.م.ع.)